الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة ابن خلدون – تيارت–

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

تخصص : أدب حديث ومعاصر

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر

مفهوم الاستشراق في كتابات الرافعي
مراقبة استميولجية

تقديم الطالب

مسلم محمد

تحت إشراف:

د.ذبيح محمد

السنة الجامعية: 2019–2020

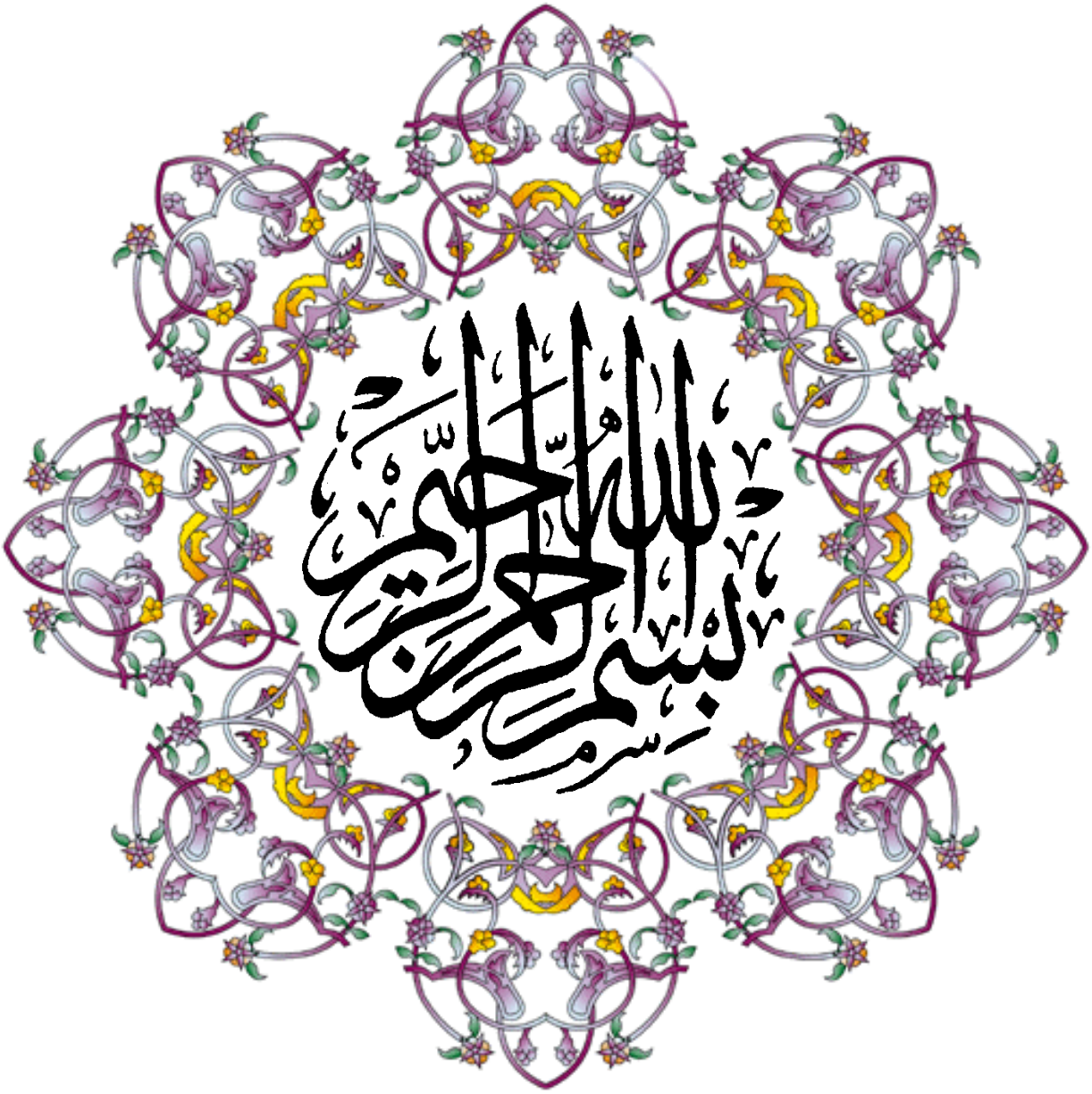
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

بعد الشكر و الحمد لله سبحانه على نعمه وفضله ، وبعد الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء و الرسل نتوجه بالشكر للأستاذ المحترم .ذبيح محمد على كل ما قدمه لنا من ارشادات وتوجيهات وجهد واخلاص .

ويشرفنا جداً أن نتقدم الى اعضاء لجنة المناقشة الموقرة باسمى آيات العرفان و الامتنان و التقدير لقبولها مناقشة هذا العمل

ونسأل الله التوفيق و السداد موفر الصحة و العطاء

إهداء

الى نبع الحب و الحنان، الى من انارت بحبها حياتي الى من دعائها سر

نجاحي وسعادة قلبي والدتي العزيزة أطال الله في عمرها.

الى قدوتي في الحياة الى من قضى عمره لكي اصل الى هذا المستوى

والدي العزيز رحمه الله

مقدمة

مقدمة:

اللهم بك نستعين وعليك نتوكل، وكفى بك جلّت قدرتك معينا وماديا، ونصلي ونسلم على جبينك " محمد صلى الله عليه وسلم " القدوة الحسنة والمثل الأعلى لنا في التربية والتعليم أما بعد.

إن الاستشراق يشكل الجذور والحقيقة التي كانت ولا تزال المدد للتنصير والاستعمار، وتغذّي عملية الصراع الفكري في البلاد المستعمرة وتشكل المناخ الملائم من أجل فرض للسيطرة الاستعمارية على الشرق الإسلامي وإخضاع شعوبه لسيطرتها فالاستشراق هو المنجم والمصنع الفكري الذي يمدّ المنصّرين والمستعمرين بالمواد يسوّقها في العالم الإسلامي لتحطيم عقيدته، وهدم وعالم أفكاره، وقد جاء هذا الغزو الثقافي في تمرة لإخفاق الغزو العسكري وسقوطه، ولتربية جيل ما بعد الاستعمار، ولقد تطورت الوسائل وتعدّدت طرق المواجهة الثقافية الحديثة التي تطورت إليها الاستشراق، حيث تمكن أصحاب القرار السياسي من الإطلاع والرصد لما يجري في العالم يوميا، ففي القارة الأمريكية وحدها حوالي تسعة ألاف مركز للبحوث والدراسات، منها حوالي خمسين مركزاً مختصاً بالعالم الإسلامي.

فالاستشراق أحد العوامل المهمة التي أثرت، ولا تزال في الفكر الإسلامي، كما لعبت دوراً بارزاً في صياغة التصورات الغربية السلبية عن الإسلام ، فقل أن كحد مجالاً لم يتناولوه بالبحث والدّرس، فقد كان للاستشراق أثر كبير في خلق أزمة المنتقدين المحدثين في العالم الإسلامي، من خلال تطبيق مناهجه في مؤسساته العلمية وعن طريق أعداد كبيرة من الطلبة تلقّوا تعليمهم في الغرب.

إن قلة المستشرقين وقفوا حياتهم لدراسة الدين الإسلامي في جوانبه كافة، وأقيم لآرائهم وما انتهوا عليه وزن كبير، فقد أثاروا في قلب قادة العالم الإسلامي وجمهره من مفكريه الذين

درسوا الإسلام في مراكز العرب وبلغته، شبهات حول الرسالة والرّسول، وأحدثوا في نفوسهم بأساً من مستقبل الإسلام.

فانطلق هؤلاء أو كثير من منهم من ثقافتهم الخاصة، بإسقاطات غير عادلة عند تناولهم الإسلام ومن منطلقات الفكر الأوروبي نفسه في أوج مراحل تفوقه.

من خلال بحثنا هذا تطرقت إلى طرح أهم إشكال قامت عليه الدراسة وهو:

ما مفهوم الاستشراق في كتابات الرافعي ؟

وقد كان الدافع لتناول هذا الموضوع يكمن في رغبتنا في التعرف واستقراء وتعليل كل ماله علاقة بهذا الموضوع للوصول إلى الهدف المرجوا واعتمدت في بحثي هذا على المنهج الوصفي التحليلي لملائمته الموضوع، وذلك من خلال العرض المقدّم لمعرفة الاستشراق بصفة عامة أولاً وعند الرافعي ثانيا، متبعا في ذلك خطة البحث التالية:

الفصل الأول: المعنون بمفهوم الاستشراق بصفة عامة، حيث ينرج تحت هذا الفصل ثلاث مباحث، المبحث الأول: لمحة عن الاستشراق تطرقت فيه إلى تعريف الاستشراق، وأسبابه وأهدافه ومجالاته ووسائله، أما المبحث الثاني: لمحة عن أمم المستشرقين فيه أهم المسترقين الأجانب، أما المبحث الثالث والأخير كان بعنوان مراحل الاستشراق.

أما فيما يخص الفصل الثاني: فقد وسمته موقف الرافعي من الاستشراق وفيه عرضت ثلاث مباحث:

المبحث الأول: كان بعنوان التعريف بشخصية مصطفى صادق الرافعي.

أما المبحث الثاني: فتمثل في أهم كتبه حول الاستشراق، أما المبحث الثالث تحت عنوان موقف الرافعي من الاستشراق وهذا هدفنا في هذا البحث.

وقد أسفر هذا البحث في ختامه بنتيجة التي توصلت إليها، ثم خاتمة ثم قائمة المصادر والمراجع، وفهرسة عامة للموضوع.

وقد اعترضت مسيرة هذا البحث جملة من الصعوبات وهي قلة المصادر والمراجع وفي ختام هذا البحث أسأل الله تعالى أن يوفقني إلى ما يحبّه ويرضاه وأن يرزقني التوفيق في حياتي، كما أقدم شكري للأستاذ المشرف " ذبيح ".

تيارت في: 03-10-2020.

مسلم محمد.

الفصل الأول

مفهوم الاستشراق

إن الإستشراق ظاهرة ولدت ونمت وامتدت منذ القرن العاشر الميلادي إلى يومنا هذا، وظاهرة امتدت كل هذه المدة الزمنية وتميزت بكل تلك الحيوية والقوة في التعاطي والشد والجذب والجدل أحرى بها أن تترك أثرا ماثلا لا يمّحي أبد الدهر. ورغم أنها ظاهرة تحكمت في نشأتها ظروف معينة في مرحلة حساسة من تاريخ العلاقة بين الغرب والشرق، ورغم كل الجدل الدائر والمستمر عن نهاية الإستشراق من عدمها، إلا أنها – أي الظاهرة الإستشراقية- رسمت معالم تاريخ جديد بين الشرق والغرب، مغاير لكل ما سبقه و في كل المجالات الفكرية والاجتماعية والسياسية.

إن الحقيقة ليست واحدة، ونحن من خلال هذا العمل، سواءا كان متواضعا أو غير ذلك – نسعى أن نصل إلى كشف جانب ولو يسير من هذه الحقيقة الواسعة المتكاملة حبا في المعرفة قبل كل شيء. والله المستعان وهو على كل شيء قدير.

مما لا ريب فيه أن التراث الذي خلفه المستشرقون على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم تراث ضخم توسع على مرا العصور والحقب ليشمل جوانب العلوم الدينية والاجتماعية والأدبية إلى غيرها، حيث أنهم طرقوا كل المواضيع التي ألزموا أنفسهم بدراستها وبحثها متفانين في ذلك أشد التفاني، باذلين الجهد والمال والوقت خدمة لأوطانهم وتحقيقا لأهدافهم القريبة والبعيدة، لكننا وبعيدا عن الخوض في هذا الباب الذي سيأتي الحديث فيه لاحقا، ملزمون بطرح الأسئلة التقليدية الملحة في بحث أية ظاهرة علمية، وبما ان موضوع بحثنا هذا هو الإستشراق، فما هو الإستشراق؟ ما تعريفاته؟ كيف وجد ولما كانت الحاجة إليه أساسا؟ هل كان لحظة عابرة في التاريخ أم أنه استمر كظاهرة علمية؟وإذا كان استمر وتطور، فكيف حدث ذلك وما كانت دوافع وجوده؟إلى غيرها من الأسئلة التي ستتم الإجابة عنها تباعا إن شاء الله.

المبحث الأول: لمحة عن الاستشراق:

لقد مر المفهوم العلمي لكلمتي " الإستشراق" و"المستشرق" بأدوار مختلفة منذ عام 1683م عندما كان " يطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية"[1].

إن كلمتي " المستشرق" و "الإستشراق" علميّا حديثتا العهد في الإنجليزية والفرنسية[2]، وأول ما ظهر مصطلح " مستشرق" – وهو الأسبق بالنسبة لمصطلح "استشراق- كان في أوروبا ،"ليطلق كوصف ثقافي وعلمي حديث على مختصين أوروبيين في ثقافة الشرق ولغاته وتراثه وحضاراته."[3] و أول ظهور له كان في انجلترا قبل غيرها سنة 1779م ثم بعد ذلك بعشرين عاما ظهر المصطلح في فرنسا سنة 1799م ليعم بعد ذلك مختلف الحواضر في الدول الأوروبية".[4] أما كلمة "استشراق" فكان ظهورها متأخرا نسبيا وعرفتها " اللغة الانجليزية قبل غيرها سنة 1811م ثم عرفتها اللغة الفرنسية عام 1830م" [5]، وبعد ذلك بقليل جاء الاعتراف بهما داخل الأكاديمية الفرنسية "المشهورة بالحيطة في إدخال الكلمات الجديدة إلى اللغة الفرنسية فأدخلتهما إلى معجمها الشهير عام 1938م"[6]. ومن المعاجم الغربية الحديثة انتقل المصطلحان إلى المعاجم اللغوية العربية الحديثة والمعاصرة – إذ من المعلوم أن لفظة استشراق التي نبحث عن مفهومها اللغوي "لم ترد في المعاجم العربية المختلفة"[7]. ونحن هنا نقصد المعاجم العربية التراثية القديمة في معظمها.

أ- لـــغـــة: جاء في "لسان العرب": شرق: شرقت الشمس تشرق شروقا وشرقا: طلعت. واسم الموضع المشرق، والشرق: المشرق والجمع أشراق.

---

[1] فلسفة الإستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، أحمد سمايلوفيتش. ص 25

[2] المرجع نفسه.ص26

[3] الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، الطيب بن ابراهيم، دار المنابع، دط.2004 م،ص18

[4] المرجع نفسه، ص18

[5] المرجع نفسه.ص18

[6] فلسفة الاستشراق و أثرها في الأدب العربي المعاصر. أحمد سمايلوفيتش. ص 26

[7] فاسفة الاستشراق و أثرها في الأدب العربي المعاصر. أحمد سمايلوفيتش. ص21.

والتشريق: الأخذ في ناحية الشرق.. وشرقوا: ذهبوا إلى الشرق أو أتوا الشرق".[12] كذلك تقريبا نجد في القاموس المحيط:" الشرق: الشمس...وإسفارها، وحيث تشرق الشمس.. وشرقت الشمس شرقا وشروقا: طلعت. والتشريق: الجمال، وإشراق الوجه ،والأخذ في ناحية الشرق."[53] هذا في ما يخص المعاجم العربية القديمة التي خلت من اللفظة المراد البحث عنها – أي الاستشراق– حيث هي غير معروفة آنذاك وأقرب لفظة للمعنى المراد هي كلمة " استعراب" و "مستعرب" والتي تعني دخول غير العرب في لغة العرب وآثارهم وتقاليدهم وتمكنهم منها تمكنا متفاوتا.[3]

أما حين نستقصي المعاجم العربية الحديثة فإننا نجد لفظة "الاستشراق" في جلّها، ففي المنهل نجد تحديدا جميلا للمفاهيم على النمط الآتي: "جاءت لفظتا شرق ومستشرق مقابلتان للفظة الفرنسية " Orient" و" Orientaliste" لوصف أهل الشرق أوالشرقيين. وOriental هو الشرقي والمشرقي. "Orientalisant" لو صف كل متأثر بالشرق. أما الاستشراق فيعبر عنها بلفظة Orientalismeالتي لها أيضا معنى حب الأشياء الشرقية والمستشرق أو العالم باللغات والآداب الشرقية هو"Orientaliste" .[4]

أما في " المنجد في اللغة العربية المعاصرة " فلفظة شرق تعني: شرق: نقطة أو جهة الأفق التي تطلع منها الشمس على مدار السنة. الشرق: البلدان أو المناطق الواقعة في الشرق، جهة طلوع الشمس. وتشرق: صار مستشرقا، تشرق أوروبي. إستشرق: صار مستشرقا.اهتم بالدراسات الشرقية ،"إستشراق فرنسي".

– إستشراق: اتجاه الغربيين نحو الاهتمام بتراث الشرق وحضاراته ولغاته. مستشرق والجمع مستشرقون: أديب غربي يهتم بدرس تراث الشرق وحضاراته ولغاته".[5]

---

[1] القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي، دارا حياء التراث العربي/مؤسسة التاريخ العربي،بيروت ط1417،1هـ/1997م،مادة شرق.

[2] لسان العرب.ابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر. بيروت. المجلد العاشر. ط1410.1هـ/1990م باب حرف القاف .مادة "شرق".

[3] ينظر مادة "عرب" في "لسان العرب" لابن منظور، و "القاموس المحيط" للفيروزا آبادي.

[4] المنهل: قاموس فرنسي–عربي، د.سهيل إدريس. دار الكتاب. دط.2004م.ص 851/850.

[5] 56 م باب حرف الشين.ص2.2003 لمنجد في اللغة العربية المعاصرة.دار المشرق.ط

و لا تخرج الدلالة اللفظية لكلمتي "مستشرق" و "استشراق" في المعاجم العربية الحديثة عن تلك الموجودة والمتعارف عليها في أمهات المعاجم الغربية، الفرنسية منها خاصة- وهي التي تهمنا في هذا البحث.

1-قاموس le robert :شرق: المنطقة التي تشرق الشمس منها. شرقي: متمركز في الشرق...شخص أصله من الشرق.

مستشرق: استخدم كإسم منذ سنة (1799م)...لتمييز الخبير في اللغات و الحضارات الشرقية. استشراق: علم الأشياء الشرقية (0481)،تذوق الأشياء الشرقية(6481).[1 57]

2-قاموس le littré:شرق: النقطة من الفضاء حيث تشرق الشمس عند الأفق...شرقي:من جهة الشرق:ينتسب للشرق. استشراق:مجموع المعارف و الأفكار الفلسفية الخاصة بالشعوب الشرقية.مستشرق:المهتم بالمعارف و اللغات الشرقية.عالماستشراقي [2].

3-القاموس الموسوعي auzou: شرقي: من الشرق، من الشرق كهوية ثقافية أو سياسية. استشراق: الاهتمام بكل ما يأتي من الشرق.مستشرق:شخص مهتم بالاستشراق،أو يدعيه [3].

4-قاموسle petit larousse: شرقي: ما يوجد في الشرق،في المشرق، شخص ينتمي للحضارة الشرقية...لأحد البلدان الشرقية. استشراق: مجموع العلوم التي تتخذ موضوعا الحضارات الشرقية. تذوق الأشياء الشرقية.مستشرق: الذي له علاقة بالاستشراق، المختص في الحضارات الشرقية [4].

ب-اصطلاحا:

إن الباحث عن تعريف محدد للإستشراق سيجد نفسه أمام سيل من التعريفات التي دبجت حوله والتي لا تنتهي " ومن أجل هذا فإن إعطاء تعريف للإستشراق هو ضرب من المحال، وكل

[1] leRobert » dictionnaire historique de la langue française.Paris Octolire 765 1992.p.1382/1383

[2] le littre » dictionnaire de la langue française.Hachete.2001..p.1130.

[3] « Auzou » dictionnaire encyclopédique.2005.p.1181.

[4] Le petit larousse (grand format.larousse.2005.p.763

تعريف نجهد أنفسنا لإعطائه لا يكون شاملا جامعا مانعا"[1].ورغم اقتناعنا بهذه الفكرة، إلا أن هذا لا يمنعنا من سوق بعض التعريفات التي قد توضح لنا أكثر ماهية الموضوع، ولزيادة المنفعة لن نكتفي بآراء العلماء والباحثين العرب، حيث نورد بعض التعريفات التي دبجها علماء غربيّون من المستشرقين وغيرهم. يقول رودي بارت: "..الإستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي"[2].ويصفهجويدي في معرض حديثه عن فحوى الإستشراق وأهدافه بأنه التعمق.."في درس أحوال الشعوب الشرقية ولغاتها وتاريخها وحضارتها"،[3]وغير بعيد عن هذا يرى ديتريش أن المستشرق هو ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه ولن يتأتى له الوصول إلى نتائج سلمية في هذا المضمار ما لم يتقن لغات الشرق".[4]

أما في الجانب العربي- أو الشرق- فقد تحددت التعريفات الخاصة بالإستشراق دون أن تبتعد كثيرا عن المعاني السابقة، فهذا أحمد حسن الزيات يرى أن الإستشراق اليوم هو " دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره"[5] وعند اسمايلوفيتش فهو التبحر في لغات الشرق وآدابه.[6]

أما ادوارد سعيد فيرى أن "الإستشراق أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق (وفي معظم الأحيان) الغرب"[7] وهو- أي الإستشراق- " الدراسة المتقصية المتنوعة المتعددة الأغراض التي مارسها الغربيون لمحاولة فهم الشرق والتعرف إلى كنوزه الحضارية، وعاداته وتقاليده وحضارته وديانته وكل منحى من مناحي حياته ،مهما كان الغرض الدافع إلى هذه الدراسة سواءا كانت لأهداف دينية أو عسكرية أوسياسية أو اقتصادية أو علمية"[8] وهي جلها آراء آراء كما نرى تعبر عن معنى متقارب. لكننا قد نجد بعض التعريفات التي قد تعبر بطريقة

---

[1] نقد الخطاب الاستشراقي. ساسي سالم الحاج دار المدار الاسلامي.يناير 2002.ط1.ج17/1

[2] نقلا عن "فلسفة الاستشراق" أحمد سمايلو فيتش. ص23

[3]المرجع نفسه. ص24

[4] المرجع نفسه. ص 25

[5] تاريخ الأدب العربي. أحمد حسن الزيات دار المعرفة.ط.4 1418هـ/1997م ص.378

[6]فلسفة الاستشراق و أثرها في الأدب العربي المعاصر، أحمد سمايلوفيتش. ص 23

[7]الاستشراق. إدوارد سعيد ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية. الطبعة العربية السادسة. ص189.

[8]نقد الخطاب الاستشراقي، ساسي سالم الحاج. ص21/20

فريدة عن أيديولوجية معينة وهوالحال عند ادوارد سعيد في "الإستشراق" حيث نراه يقول: "إن الإستشراق يمكن أن يناقش ويحلل بوصفه المؤسسة المتشركة للتعامل مع الشرق ،التعامل معه بإصدار تقرير تحوله، وإجازة الآراء فيه، وإقرارها، بوصفه وتدريسه والاستقرار فيه، وحكمه، وبإيجاز الإستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه وامتلاك السيادة عليه"[1] ،وهذه الفكرة تكاد تكون لبّ عمل ادوارد سعيد وأساس كتابه الآنف الذكر، وهي فكرة فريدة لا يشاطره الرأي فيها أغلب الباحثين و إن شاطروه فيها فبتحفظ .

وحتى إذا سلمنا أن الإستشراق هو التخصص في فروع المعرفة المتصلة بالشرق وهو المفهوم الأكاديمي المتعارف عليه، فإنه قد انحسر في الوقت الحاضر، فليس كل دارس لإحدى الثقافات الشرقية يمكننا أن نطلق عليه اسم مستشرق. ورغم أنه لا يوجد هناك مفهوم محدد متفق عليه هو الإستشراق ومجالاته والحقول التي يعالجها،إلا أنه يمكننا أن نقول إن الإستشراق لا يخرج عن كونه تلك الدراسات والمباحث التي قام بها الغربيون لمعرفة الشرق من جميع جوانبه.

إن الباحث عن فهم أي ظاهرة و عن سبر أغوارها والوصول إلى أسرارها لا بد له من معرفة جادة بتاريخها وظروف وجودها التاريخي، فيحاول إضاءة ما يمكن من الحركية التاريخية للظاهرة ومدى توسعها وانتشارها واستمراريتها إن كان لها ذلك بالطبع، فمن خلال هذا العمل الأولي يهيئ الباحث الأرضية المعرفية التي ستكون أساسا للعمل كله. ومنه فإننا- ونحن نتعرض للإستشراق كموضوع للدراسة- ملزمون بتهيئة هذه الأرضية وبسطها شيئا فشيئا أمام المتلقي حتى نضمن الحد الأدنى من الترابط بين أجزاء العمل، وكذلك تمتين الصلة مع ذهن المتلقي.

إن للإستشراق تاريخا معتبرا، ليس بالمعطى الزمني فقط، بل حتى بالنظر إلى ما تحقق منه على أرض الواقع، ومدى عمق التأثيرات التي سايرت وجوده واستمراريته، وصولا إلى الآثار المهمة والخطيرة أحيانا التي كانت نتاجا مباشرا أو غير مباشر له. ونظرا لكل هدا فإن توطئة لجوانب الموضوع من حيث أسس وجوده وملابساته، أسبابه وأهدافه، ووسائله أيضا، وصولا إلى تطوره وأهم مراحله التي مر بها حتى عصرنا الحاضر، تصبح أكثر من ضرورية.

[1] الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء. إدوارد سعيد. ص 17.

إنه لمن العسير جدا تحديد النشأة التاريخية للإستشراق بسنة معينة، ويأتي العسر من كثرة اختلاف الباحثين في هده النقطة، خاصة فيما تعلق بماهية الإستشراق والمعنى الحقيقي لكلمة "مستشرق"،ولولا هذا لما وجدنا أشخاصا يحملوا نشأة الاستشراق إلى عصور سحيقة مثل أول لقاء بين الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم- ونصارى نجران، أو إلى بعد ذلك بقليل حين إرساله- صلى الله عليه وسلم- سفراء إلى ملوك العالم آنذاك[1]. وإن كنا لا نتفق مع معظم هده الآراء، فإننا يجب أن نعترف أن الهبة التي أحدثها ظهور الإسلام في الجزيرة العربية وسرعة انتشاره وتعاظم قوته ونفوذه في ما كان إلى أمد قريب يمثل منطقة امتداد لحكم الروم أو الفرس، هذه الهبة وهذه الثورة التي سارت بسرعة خارقة لكل مألوف شكلت صدمة عظيمة للعالم الغربي الذي أمسى بعد مدة وجيزة مهددا بدوره من قبلها، إذ كيف يعقل أن شرذمة من القبائل المتناحرة المتفرقة هنا وهناك في صحراء شبه الجزيرة العربية، تتوحد وتأخذ على عاتقها تأسيس دولة سياسية وعسكرية سوف بعد حين تبدأ شيئا فشيئا في الاستيلاء على الجزيرة ومنازعة إمبراطوريات عتيقة وحضارات هي من هي في ذلك الزمن، فلا تمر مائة عام منذ بدء الدعوة الإسلامية حتى أصبحت الدولة الوليدة تمتد من المحيط إلى الخليج، ولها من الأتباع الملاين التي تزداد يوما بعد يوم[2]، فتسلب الديانة المسيحية التي لها من السبق في الوجود أزيد من سبعة قرون من الزمن، تسلبها مناطق نفوذها، بل حتى الآلاف ومئات الآلاف من المخلصين الذين تحولوا إلى الإسلام .وبالنظر إلى فداحة الأمر وعظمته لم يكن بالإمكان لأوروبا الوقوف مكتوفة الأيدي دون ردة فعل تخول لها الوقوف ندا لند أمام هذه الحضارة الوليدة، وإن كان الأمر في مبدئه قد اتسم بالمراقبة والملاحظة، حتى إذا اقترب الخطر المادي ممثلا في حملات المسلمين التي وصلت للجزيرة الخضراء – اسبانيا- فجاهدت وقاتلت حتى تم لها الأمر هناك، إضافة إلى الحملات الأخرى التي مست أطراف أوروبا ونخص بالذكر هنا الغارات والمعارك التي شنها الجند المسلم بقيادة عبد الرحمن الغافقي على المناطق الفرنسية قبل توقفها لبرهة في معركة بواتييه. أو بلاط الشهداء، نقول أنه لما أصبح الخطر ماديا ماثلا أمام الأعين أصبح من غير المكن الوقوف بلا حراك. ضمن هدا المناخ بالذات، بدأت الإرهاصات الأولى للإستشراق لكن هذه الظروف السائدة آنذاك لم تكن الأسباب الوحيدة لظهور

[1] نشأة الاستشراق، د.مازن مطبقاني، موقع مركز المدينة المنورة للأبحاث والدراسات الاستشراقية WW.madinacenter.com

[2] ينظر، فلسفة الاستشراق و أثرها في الأدب العربي المعاصر. احمدا اسمايلوفيتش. ص 15-20.

الإستشراق إذ لا يمكن إغفال مدى تأثير التعاليم الإسلامية وكذا التطور الذي وصلت إليه المدنية الإسلامية في شتى المجلات خاصة الفكرية منها وصولا إلى العلوم اليدوية والتقنية والرياضية كالفلك والطب والعلوم الأخرى التي جعلت من مدن كبغداد ودمشق وقرطبة حواضر للعلم والثقافة والأنوار في ذلك الزمان عبر المعمورة كلها.

كل هذا ما كان ليمر دون أن تصل أخباره إلى مختلف الأصقاع خاصة الأوروبية منها والتي كانت متعطشة للعلم والأنوار وبالتالي التحرر من نير ظلام العصور الوسطى. وللتوسع قليلا في الموضوع، نرى أنه من الضروري الكلام عن أهم الدوافع التي أملت وجود الإستشراق واستمراره. بعض الباحثين يراها أهدافا، والبعض الآخر يعرفها على أنها دوافع، وبعيدا عن هذا عن هذا وذاك، نقول أنها الاثنان معا، فاهتمام الغرب بالشرق منذ بدايته حتى الآن لم يفقد شيئا من حماسته وقوته، وهذا لم يأتي من فراغ أبدا، بل وجهته دوافع ونوازع متعددة سنحاول اختصارها في التالي:

المبحث الثاني: دوافع الاستشراق:

أ- الدوافع الدينية:

يتفق كثير من الباحثين، خاصة العرب المسلمين منهم على أن النشأة الأولى للإستشراق كانت في أحضان الكنيسة، والأمر ليس صعبا على التقبل إذا علمنا واقتنعنا أنه وللقيام بمهمة دراسة الدين والثقافة الإسلامية الناشئة أنذاك، كان لابد من نخبة مثقفة تعي مسؤولياتها وطبيعة العمل المنوط بها وبالنظر إلى الأحوال في أوروبا أنذاك فإن "رجال الدين" – ومرجعهم الفاتيكان يومئذ – كانوا يؤلفون الطبقة المتعلمة في أوروبا ."[1] فلم يكن من الممكن لأحد أن يتسلم زمام هده المهمة مكان رجال الدين، نظرا لمستواهم العلمي من جهة، ومن جهة ثانية نظرا إلى أنهم يتمتعون بميزة الولاء التام للمسيحية وللكنيسة، وهم بذلك محصنون- نوعا ما- ضد جاذبية الإسلام دون أن ننسى قدرة العصبية الدينية التي كانوا مشحونينبها على مقاومة أي إغراء عقدي آخر.

لقد اهتم المستشرقون الأوائل "بالتشكيل الثقافي للأمة المسلمة"[2] وبمعرفة مختلف جوانب حياتها الفكرية والعقدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكشف دقائق الأمور في تكوينها. ونحن إذ نتحدث عن الدافع الديني، نشير أيضا إلى حب الإطلاع وحب معرفة الحقيقة والفضول الذي يتملك الإنسان العاقل ويدفعه دفعا إلى الأمام.

وليس أدل على ذلك من وجود عدد معتبر من هؤلاء الطلبة الأوروبيين الذين مثلوا طلائع المستشرقين قد اعتنق الإسلام عقيدة وفلسفة حياة خاصة وهم يعيشون واقعا يتسم بتسامح لم يكونوا يحلمون به في أوطانهم، أضف إلى ذلك سمو رسالة الدين الإسلامي ورفعة مبادئه، والعدالة التي مثلت روح وأساس الملك الإسلامي في مراحل عزته وعنفوانه. و في الجهة المقابلة نجد أن الكنيسة ولمجابهة هذا الزحف الإسلامي الهائل الذي بات يهدد وجودها في مهدها وقواعدها التاريخية، آثرت أن تعد مجموعة من الدارسين الذين يتقنون اللغة العربية ونهلوا من العلوم العربية خاصة في ميادين الفكر وطرق الجدل والمناظرة التي كانت سوقها نافقة آنذاك، فيتيح لهم ذلك

[1] المستشرقون، نجيب العقيقي. دار المعارف.ط4.1980.ج1/104.

[2] المرجع السابق.ص 104.

مواجهة الإسلام بالحجج والبراهين والجدل العقلي من جهة، ومن جانب آخر محاولة القيام " بالتبشير المضاد بالمسيحية في البلاد الإسلامية نفسها واستعادة ما يمكن استعادته."[1] دون أن ننسى التحصين الدفاعي الذي لجأت إليه الكنيسة في بلدان أوروبا وأقطارها قصد تشويه صورة الإسلام والنبي – صلى الله عليه وسلم- ونقل معلومات خاطئة جدا أو مقلوبة تماما عن المسلمين حتى لا تخترق الجبهة المسيحية الداخلية، وهو ما دفعهم شيئا فسيئا إلى تغذية مشاعر الخوف والرهبة من المسلمين في آن واحد مع مشاعر السخط عليهم والكراهية الشديدة لهم.

و من أهم الوسائل التي اصطنعها الفاتيكان لهذه المهمة نجد: "تعلم العربية- ثم اليونانية واللغات الشرقية- في مدارس اسبانيا وتعليمها في مدارس أديارها وكاتدارئياتها وكراسي جامعاتها..كجامعات: بولونيا (1076م) وتولوز (1217م) ومونبيلييه (1220م)...وروما (1248م)وفلورنسا(1303م)."[2]ومنه نرى أن الدافع الديني بكل ما فيه من اندفاع وقوة كان إحدى "الأسباب الرئيسية لاتجاه الغرب المسيحي- للغات الشرقية عامة ولغة الإسلام خاصة.وأخيرا لابد من الإشارة إلى أنه ورغم أن الدوافع الدينية قد حملت في طياتها غايات متعددة، ومختلفة، إلا أن الغالب عليها والمميز فيها هو مواجهة الإسلام ومحاربته ومحاولة تقويض سلطانه ونفوذه وكذا حماية المجتمع المسيحي من خطره.

ب- الدوافع العلمية: وهي من الدوافع بالغة الأهمية، إذ أن الحالة المتردية لأوروبا القرون الوسطى لم تكن لترضي طموح شعوبها وخاصة المتنورين المتفتحين منهم والذين رأوا أنه لا بد من الأخذ بأسباب الحضارة والرقي للخروج من ظلام تلك الفترة. ورأوا أنه " لا سبيل لهم لإرساء نهضتها- أي أوروبا- إلا على أساس من التراث الإنساني الذي تمثلته الثقافة العربية".[3] فقد كان التطور والتقدم الذي حققته المدنية الإسلامية خاصة في أزهى عصورها صاعقا ومثل النموذج الواجب الاحتذاء به، والعالم العربي " يعد كترا حضاريا لا نظير له في بقاع العالم الأخرى، ففيه شيدت حضارات وثقافات، ونشأت لغات وفلسفات، وولدت علوم وفنون.."[4] وعلاوةعلى هذا وذاك فقد مثلت الحضارة الإسلامية حلقة الوصل التاريخية بين الماضيوالمستقبل، حيث كما هو

[1] المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، محمد صالح البنداق.ص17.

[2] فلسفة الاستشراق و أثرها في الأدب العربي المعاصر. أحمد سمايلوفيتش. ص49.

[3] المستشرقون – نجيب العقيقي. ص 104.

[4] فلسفة الاستشراق و اثرها في الادب العربي المعاصر.أحمد سمايلوفيتش. ص 51

معلوم لم يقم العلماء والمفكرون والفلاسفة المسلمونبإقصاء أي من الثقافات الأخرى السابقة عليهم أو المزامنة لهم، فأخذوا من هذه ومن تلك وترجموا ثم عمدوا إلى الاحتفاظ بما يناسب ثقافتهم ومقوماتهم، فدرسوه وحققوه ثم زادوا عليه وطوروه، أي أنها " – أي الحضارة الإسلامية– قد حفظت تراثا إنسانيا هائلا من الزوال ونمته وطورته بصورة أو بأخرى وما كان لكل هدا الصيت الذي اكتسبته أن يمر مرور الكرام على باقي الأصقاع المتاخمة. وقد أثارت كل هذه القيم والمنجزات " اهتمام علماء الغرب فاهتموا بدراستها واكتشاف أسرارها"،[1] فشدوا الرحال إلى حواضر العلم المعروفة آنذاك في العالم العربي مثل بغداد والشام وبلاد الأندلس التي كانت ولا ريب من أهم محطات استقبالهم، نظرا للقرب الجغرافي وكذا عموم التسامح الذي تمتعت بع هده البيئة عن غيرها، وقد كانت فائدة أوروبا من هذه البعثات عظيمة و" لا تقدر، حيث أصبح أفرادها بعد عودتهم من الأندلس شعلة علمية تضيء غياهب أوطانها... وأخذت تنشر العلوم والفلسفات والآداب والحقائق فدفعت بشعوبها خطوات جبارة لا يمكن التغاضي عنها عند النظر في تطور العلم في العالم".[2] وخلاصة الأمر أن طلب العلم الذي كانت البلاد العربية والإسلامية موئلا له كان أحد أهم دوافع الإستشراق، والحقيقة الخالدة التي يجب تذكرها دائما دون مغالاة ولا مبالغة وإنما إنصافا للحق والتاريخ، هي أن المدنية الأوروبية الحديثة والعالمية أيضا تدين بكثير الكثير للحضارة الإسلامية، هذا إن لم نقلأن مبعث هده المدنية الأوروبية المتعاظمة كان من أرض الشرق وخاصة ديار الإسلام فيه.

ج– الدوافع الاستعمارية: وهي بلا شك تمثل " النقطة الخطرة في العلاقات بين الشرق والغرب"[3]. لقد كانت العلاقة بينهما دائما وأبدا تتميز بالتصادم والمواجهة ،علاقة مستعمر بمستعمر، علاقة غاز بمقاوم لهدا الغزو، علاقة مهيمن يريد بسط قوته أينما حل ونشر عقليته وديانته ومدنيته والمطالبة بالخضوع لها كلها، بصاحب أرض يرفض التخلي عن هويته وتقاليده ومقوماته الشخصية والعقدية ويبذل الغالي والنفيس في سبيل الحفاظ على حريته واستقلاليته، فكيف بالغازي إذا أصبح مغزوّا ومطاردا مهزوما مكسور الكبرياء ومجروح الشخصية أمام الصفعات المتلاحقة التي كانت تكال له على يد الأعراب الذين تحولوا إلى الإسلام فصاروا قوة بعد ضعف، وكونوا دولة فإمبراطورية شاسعة الأطراف بعد ما كانوا قبائل متنافرة. وبعد هذا وذاك

[1] فلسفة الاستشراق و اثرها في الادب العربي المعاصر.أحمد سمايلوفيتش.ص51.

[2] المرجع السابق. ص 52.

[3] المرجع السابق. ص50

وفي بضع مئات سنين تصير لهم حضارة ما مثلها حضارة ومدنية تتنادى بها الأسماع وترنو إليها الأبصار، فكيف لا يكون هنالك إلى جانب الإحساس بالخطر وواجب دفعه ،إحساس بالحسد والرغبة في الهيمنة والامتلاك من جديد، وكان المستشرقون الأوائل أكثر من لمسوا روعة الحضارة وغناها وتعاظم خيراتها وخيرات الأصقاع العربية وغير العربية التي كانت تحت الحكم العربي، وهذا ما يحيلنا إلى نقطة مهمة جدا هي أن توسع الدولة الإسلامية كان- كما ذكرنا- على حساب وجود ونفوذ إمبراطوريات ودول كالفرس والرومان البيزنطيين وغيرهم، هذا التوسع حرمهم من كثير من المزايا، من بينها السيطرة على مواقع ظلت ولا زالت إستراتيجية ومهمة في التجارة والاقتصاد، كطرق القوافل والسفن وغيرها. فكان لا بد من استعادتها أو بالأحرى محاولة استعادتها من يد العرب. ومن يضمن معرفة بالعرب تتيح المضي في هدا غير المستشرقين الذين عاشوا آنذاك بين ظهراني العرب في الحواضر الكبرى كما في البوادي فنقلوا " معلوماتهم ومشاهداتهم لسلطات بلدانهم، حتى يتم التحضير السليم والشامل "لخوض معركة فاصلة" ضد الإسلام والمسلمين. وهكذا "سار المستشرقون في ركاب الاستعمار الغربي-سواءا قديما أو حديثا-... فقدموا معلومات موسعة ومفصلة عن الدول التي رغبت الدول الغربية في استعمارها، والاستيلاء على خيراتها وثرواتها".[1]

ويتوسع بعض الباحثين في هذه الدوافع، فإضافة إلى اقتناعهم بأن الدوافع السابقة الذكر تمثل الأصل والقوة في حركة الإستشراق، إلا أنهم يضيفون إليها بعض الجوانب الأخرى التي كان لها دور في نشوء الإستشراق وتطوره، سنجملها في التالي باختصار.

د- الدوافع النفسية: حيث أن الغرب الباحث لم تكن لتخمد نفسه أمام العجب الذي عاينه في الحضارة العربية وتقدمها، وهو الأمر الذي وجد فيه منبعا لا ينضب لإرواء عطشه المعرفي وإشباع فضوله وحاجته الاطلاع على سر هذه القوة والعظمة المذهلة أنداك، وخاصة إذا نظرنا إلى "جاذبية الشرق وروعة مآثره من قديم الزمان وما أحدثه الإسلام فيه، فإن الإنسان لا بد أن يلهبه الشوق إليه".[2] فيدفعه – أي المستشرق- كل هذا إلى تحمل الصعاب والصبر على الشدائد في سبيل الوصول إلى هذا المعين المميز. إضافة إلى الظمأ للتعرف على حياة الآخرين وأفكارهم، وأخبارهم وأسرار حياتهم، دونأن نغفل الرغبة الشديدة في العيش الرغيد والتظلل بظلال الحياة الكريمة المترفة أحيانا.

[1] أهداف الاستشراق د.مازن مطبقاني، موقع مركز المدينة المنورة لدراسات الاستشراق وبحوثه WWW.madinnacenter.com

[2] فلسفة الاستشراق و اثرها في الأدب العربي المعاصر.أحمد سمايلوفيتش. ص 41

هـــ-الدوافع الاقتصادية: إذ نظرا لفداحة الظروف التي كانت أوروبا تعيشها اقتصاديا وقساوة يومياتها إبان حكم الكنيسة و الإقطاع، فإن الفقر كان منتشرا جدا لدى كل طبقات الشعب الكادحة من العمال والفلاحين خاصة في المناطق النائية التي كانت إضافة إلى الفقر في المعيشة، قاسية المناخ، وبيئة ذات أوبئة وأمراض لا سبيل إلى ردها في ظل الجهل المنتشر والعقلية المتخلفة السائدة آنذاك، وهؤلاء المستشرقون الذي سافروا واستقروا ورأوا خيرات العرب، طلبوا لأنفسهم ولأوطانهم كل هذه الثروات عن طريق الغزو والإغارة وقطع الطرق التجارية وكذا تجييش الجيوش لمحاولة دحر هذه القوة الإسلامية ونهب وسلب كل مقدراتها وبالتالي تحقيق الغني والرخاء .وكما أسلفنا فقد كانت الطريقة الوحيدة لتحقيق هذه الأهداف هي التنقل للشرق وتعلم لغاته وعلومه بغية التمكين للسيطرة والتفوق عليه.[1]

وإضافة إلى كل هذه الدوافع الهامة نجد دوافع فكرية إيديولوجية وأخرى تاريخية ذات ارتباط وثيق بحركية الصراع الوجودي القائم منذ فجر الحضارة بين الشرق والغرب، ويمكن التوسع فيها بالرجوع إلى مصادر هذا البحث.[2]

وبالعودة للحديث عن نشأة الإستشراق وولادته يجب أن نشير إلى أنه لم يكن في مراحله الأولى منظما ورسميا ومحددا بدقة، إذ أن ظهوره بدأ بشكل انفرادي وتدريجي من طرف أفراد أوروبيين، رهبانا ومغامرين استهوتهم الدراسات الشرقية وبالأخص أحلام الشرق الغرائبي (الإكزوتيكي-exotique)، دون أن ننسى دور احتكاك الغرب بدولة العرب بالأندلس، و بالتالي فإن الإستشراق بدأ اجتهادا فرديا مدفوعا بحب الكشف والاستطلاع والمغامرة. فكان يتم دون إشراف مؤسسات ترعاه ودون تنظيم وتأطير وتخطيط حقيقي كما أصبح الحال عليه لاحقا، وهذا ما يصعب حقيقة من التاريخ بدقة له، ولا أحد من الباحثين يجرؤ أن يسمي أول غربي عني بالدراسات الإستشراقية. "إلا أنه من المؤكد أن بعض الرهبان قصدوا الأندلس وتعلموا بها وتخرجوا من مدارسها، وهؤلاء كانوا أول طلائع المستشرقين."[3] غير أننا إذا تحرينا التدقيق فلن نخرج بنتيجة

---

[1] المرجع السابق.ص41.

[2] المرجع نفسه.ص 45-46.

[3] ينظر "فلسفة الاستشراق" .أحمد يمايلوفيتش. و "الظاهرة الاستشراقية" ساسي سالم الحاج" "وتاريخ حركة الاستشراق "ليوهان فوك

مرضية لفضولنا، إذ أن الباحثين كانوا ولا زالوا يختلفون في التحديد الزمني لبداية الإستشراق ،حيث نجد رأيا يطرح القضية من حيث هي التقاء بين الشرق والغرب، – وهي كذلك بالفعل – فيعود بنا إلى زمن الإسكندر الأكبر وزحفه على الشرق وتغلبه على نظرائه الفرس وكيف أنه وبعد أن تمت له الهيمنة على مصر والهلال الخصيب فكر في الاستيلاء على الجزيرة العربية فأرسل بعثات استكشافية إلى تلك المنطقة رصدت جغرافيتها ومسالكها وأجناسها و من ثم سبل الاستيلاء عليها. ودون الخوض في التاريخ نجد أن تلك المدونات قد تكون في نظر البعض ممهدة لأي معرفة بالشرق ستولد فيما بعد،[1] لكننا وبعيدا قليلا عن هذا الرأي، وحينما نتحدث عن الإستشراق بمعناه الحديث نجد آراءا قد لا تتعارض بقدر ما تختلف.وبالعودة إلى هذه الآراء نجد أنها في الغالب الأعم تتفق على أن الحروب الصليبية لم تكن المرحلة الحاسمة في نشأة الإستشراق وأنها في رأي

بعض الباحثين لم تكن إلا نتيجة واحدة لمقدمة واحدة هي الإستشراق".[2]يرى إسحاقالحسيني أنه من العسير بمكان تحديد نشأة الإستشراق بسنة، لكنه يرى أنه من الطبيعي أنيشد الإسلام في ظهوره نظر رجال الدين المسيحي، خاصة بالنظر إلى انتشاره السريعالمذهل في الشرق والغرب.[3] هذه الطفرة الإسلامية لم تكن لتمر مرور الكرام، بل على العكس، خاصة إدا علمنا الأثر الذي حققته وتركته لأزمنة متعاقبة، فبحثوا عن السبل الناجعة للحد من انتشاره أولا ثم القضاء عليه لاحقا، ولا يكون ذلك إلا بدراسته ومعرفته قوة وضعفا،فكانت طلائع المستشرقين الأوائل التي شدت الرحال خاصة إلى الأندلس لما كانت تتميز به من تسامح و انفتاح، وهو قريب من رأي أسعد داغر الذي يشدد على أن هذه الطلائع هي نواة الإستشراق، ويحدد تاريخها بالقرن العاشر الميلادي وصولا إلى القرن الثاني عشر.[4] على أن هناك آخرين يرون البداية الحقيقية للإستشراق كمنهج معرفي – في القرارات التي اتخذت في مجمع فبينا الكنسي الذي عقد بداية القرن الرابع عشر الميلادي، وبالضبط سنة 1312م، والدي تقرر فيه إنشاء عدد من كراسي الأستاذية في العربية واليونانية والعبرية والسريانية في جامعات كل من أو كسفورد ،باريس، بولونيا و أفينيون.[5] وهو

---

[1] .30-29ص الاستشراق الفرنسي و تعدد مهامه خاصة في الجزائر، الطيب بن ابراهيم.

[2] الظاهرة الاستشراقية "ساسي سالم الحاج.ص 29-30.

[3] المستشرقون-نجيب العقيقي.ط 4.ج1/ 105-106

[4] فلسفة الاستشراق و اثرها في الأدب العربي المعاصر. أحمد سمايلوفيتش. ص56.

[5] المرجع نفسه. ص 55.

رأي فيه الكثير من الصواب إذا تحدثنا عن الجانب البيداغوجي للقضية، والجانب الهيكلي، لكن بشيء من المنطق سنعلم أنه ما كان لهذه الكراسي أن توجد لو لم يوجد أساتذة متخصصون يشغلونها، وهو دليل ملموس على أن الإستشراق ذو جذور بعيدة قد تعود إلى القرن العاشر الميلادي كما ذكرنا قبلا، ولعله من المساعد أن نذكر أن أغلب المؤرخين للإستشراق يذكرون اسم البابا "سلفستر الثاني" أو " جربيردي أورلياك" (930-1003م) كأول، أو على الأقل أقدم مستشرق معروف لدينا، وبالتالي يكون عصره هو ومن بدأ معه المشوار، عصر الخطوات الإستشراقية الأولى واقعا.[1]

و الرأي نفسه يذهب إليه برنارد لويس في حديثه عن النشأة الأولى للإستشراق ،حيث يركز كثيرا على الاحتكاك التاريخي بين الغرب المسيحي والأندلس وحواضرها وأثر البعثات المتعاقبة من الطلاب المسيحيين الى طليطلة وقرطبة والزاهرة وغرناطة وغيرها من المدن الأندلسية التي لم تخل واحدة منها من علم غزير حمله هؤلاء الطلاب معهم إلى بلدانهم، حاملين فيه أسباب نهضة تجلت فيما بعد ذلك بزمن غير يسير.[2]

ودائما عند علماء الغرب نجد رودي بارت يجزم بأن البداية الفعلية العملية للإستشراق كانت في القرن الثاني عشر الميلادي،وسيؤيد رأيه هذا بحقائق تاريخية مثل ظهور أول ترجمة لاتينية للقرآن سنة 1143م، إضافة إلى ظهور عمل أكاديمي مهم جدّا هو أول قاموس لاتيني عربي وبالتالي فإن بداية الإستشراق لا بد كانت في القرن الثاني عشر.[3]

وخلاصة القول أن أقرب الآراء للمنهجية العلمية الموضوعية والدقة التاريخية هو أن الإرهاصات الأولى للإستشراق كانت متمثلة في أولى البعثات الطلابية التي قصدت حواضر العالم الإسلامي خاصة مركز الخلافة في بغداد، ومدن الأندلس الشهيرة، هذه البعثات كانت مع أواخر القرن العاشر الميلادي، وهذه الخطوة هي التي مهدت لظهور ثمرات هامة بعد ذلك بقرن ونيف من

[1] الاستشراق الفرنسي و تعدد مهامه خاصة في الجزائر، الطيب ابن براهيم ص 30

[2] ينظر "الاستشراق الفرنسي" الطيب بن ابراهيم. و "موسوعة المستشرقين" عبد الرحمن بدوي .و "المستشرقون "لنجيب العقيقي.

[3] فلسفة الاستشراق و أثرها في الأدب العربي المعاصر. أحمد سمايلو فيتش. ص 57-58.

الزمان مثل ولادة أول قاموس لاتيني عربي إلى الوجود وما زامنه وتلاه من أعمال أخرى خلال نفس الفترة، أي القرن الثاني عشر

الميلادي الذي يعتبره أغلب الباحثين الفترة التي تجسد فيها عمل الاستشراق وبالتالي نشأته الفعلية، لكننا ورغم كل هذه التحديدات الزمنية المتفاوتة شيئا ما، لا يمكننا الجزم بمدة معينة محددة وإنما هي فقط مقاربات لأن لكل رأي جانب من الموضوعية التاريخية على الأقل وبالتالي فوجهات النظر ستظل محتفظة بخصوصياتها المعرفية الموفقة كل على حدة بأدلتها وبراهينها.

المبحث الثالث: مراحل الإستشراق:

نقصد بهذا المبحث دراسة التطور التاريخي من حيث الآليات والأهداف والذي ميز مسيرة الإستشراق عبر مختلف العصور منذ نشأته، وكذا محاولة فهم وجلاء أهم ما ميز كل مرحلة من خصوصيات شكلت المناطق الحساسة في الصورة، ورغم تنوع الآراء الخاصة بالموضوع بتنوع زوايا الطرح وطرق الدراسة وكذا الأهداف المبنية عليها، إلا أننا حاولنا قدر المستطاع أن نجد التوازن بين هذه الآراء، ونركز على النقاط المشتركة فيما بينها بغية الخروج بتقسيم معتدل يروي الظمأ المعرفي ويحقق المنفعة العلمية المراعية للحقيقة التاريخية، وكما أسلفنا فإن الباحثين اختلفوا في كثير من القضايا الخاصة بالقضية موضوع الدراسة – أي الإستشراق- ومن بينها المراحل التي مر بها في تطوره التاريخي، ورغم أن الاختلاف لم يكن جذريا إلا أنه يعبر عن اختلاف- أو تنوع- الزوايا التي من خلالها يرى كل باحث موضوعه المدروس.

لقد كانت أغلب التقسيمات التي صادفناها أثناء بحثنا تتفق على أن الإستشراق مر ّبثلاث مراحل أساسية، شكلت عموده الفقري، وشكلت صورة وجوده و دوره في الأحداث التاريخية الخطيرة والحاسمة التي عاصرها ولا يزال. و لقد عملنا على أن نحقق الحد الأدنى من التقارب بين كل هذه التقسيمات حتى نضمن – ولو بصفة يسيرة- عدم التنافر والتناقض، وكذا الحفاظ على تركيز القارئ وانتباهه. ويتم تقسيم مراحل الإستشراق حسب الدراسات إلى المراحل التالية:

أ- الطور الأول: ويمكننا أن نطلق على هذا الطور عدة صفات أو أسماء مثل "طور التكوين"[1] أو "مرحلة الولادة" أو خاصة "مرحلة الاستشراق الديني".ولكل عنوان من هذه العناوين مرجعيته التي ستتجلى فيما يأتي من السطور.

لقد انتشرت الديانة المسيحية عن طريق حواريي المسيح الذين تفرقوا شرقا وغربا عملا على نشر تعاليمه وإيصال كلمته التي آمنوا بها واعتنقوها، فكثر أتباعهم " خاصة في الولايات الرومانية الشرقية"[2]، واجتازوا غيرها من المناطق بعيدة الشقة وصولا إلى روما قلب الإمبراطورية الرومانية، ورغم كل ما أصاب المسيحيين في هذا الزمان من " اضطهاد وتنكيل.إلا أنهم أحسنوا الصبر،

[1] فلسفة الاستشراق و أثرها في الأدب العربي المعاصر. أحمد سمايلو فيتش. ص 57.

[2] المرجع نفسه.ص70-71. و"الظاهرة الاستشراقية".ساسي سالم الحاج.ص 33 - 36.

وبذلوا المهج والأرواح دفاعا عن عقيدتهم."[1]،واستمر هذا الاضطهاد للمسيحيين الأوائل حتى توقف على عهد الإمبراطور قسطنطين لأسباب سياسية أكثر منها عقدية، كان أهمها هو رأب صرح الدولة المتصدع والتي باتت على مشارف الانقسام ،المهم أن الطريق أصبحت معبدة أمام المسيحيين الذين أصبحت عقيدتهم هي الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية ،فهكذا انتشرت واستمر توسعها قبل ظهور الإسلام عن طريق الرهبان والتجار الذينوصلوا فعلا إلى الجزيرة العربية فدخلوها داعين مبشرين، ونحن هنا لا نؤرخ للكيفية التي دخلت بها المسيحية هذه الأصقاع ولا الزمن الذي حصل هذا فيه، وإنما الذي يهمنا هو أنه وبفضل ما كان لكثير من المبشرين من مواهب وعلوم، فقد تمكنوا من استمالة العديد من رؤساء القبائل العربية " الذين استقبلوهم وهيأوا لهم الوسائل لنشر دعوتهم...حيث توغلوا إلى مناطق نائية من الجزيرة العربية وعاشوا بين البدو يقاسمونهم شظف عيشهم وقسوته...وشاركوهم في سكنى الخيام"[2] حتى أطلق عليهم " أساقفة الخيام" واستمرت المسيحية منتشرة في الجزيرة العربية حتى ظهور الإسلام الذي كان له معها شأن، ومن هنا كانت بداية العلاقة بين المسيحية والإسلام. ومنذ هذا اللقاء الأول والصراع يزداد ويقوى كل حين، وليس الأمر فقط لأن الإسلام كعقيدة وأسلوب حياة شامل بدأ يستميل قلوب الناس من عرب وغير عرب فقط ،ويستولي كل حين على قلوب المزيد من المريدين، وليس فقط لأن دولة الإسلام بدأت تتوسع واستمر توسعها على حساب مناطق كان النفوذ فيها لبيزنطة الممثلة للمسيحية، بل أيضا لأن العرب المسلمين أسسوا حضارة عالمية ذات أهمية بالغة في التاريخ البشري " الذي نقلت إليه تراث الحضارات القديمة، بعد أن استوعبتها وصقلتها، وأدخلت عليها أوجه التغيير والتبديل المطلوبة"[3]. وكما أسلفنا فالصراع صار "صراعا على وجود لا صراعا على حدود". ومنذ الوهلة الأولى والغرب المسيحي مشدوه أمام عظمة النهضة التي خرجت من جزيرة العرب، مذهول أما مسرعة انتشارها، مرعب من قدرتها على التوسع وكسب القلوب، وأمام هذا السيلا لجارف، كان لا بد من وقفة، فكانت هذه الوقفة من رجال الدين المسيحيين من أساقفة ورهبان وغيرهم بغية وقف هذا الزحف، وللوصول إلى هذا الهدف كان لابد من معرفة مدى قوة الإسلام ،معرفة نقاط قوته وخاصة نقاط ضعفه، معرفة مبادئه وتعاليمه والعمل عليها لنقده

[1]"الظاهرة الاستشراقية".ساسي سالم الحاج. ص 38.

[2]الحضارة الانسانية بين الشرق والغرب. سامي اليافي، مطبعة العالم العربي.ط.1. دت. ص48.

[3]الظاهرة الاستشراقية. ساسي سالم الحاج. ص 38-39.

ونقضه، و لم تتسن الفرصة المناسبة لفعل ذلك بالشكل المطلوب إلا إبان ظهور الدولة الأموية في الأندلس والطفرة الحضارية والإنسانية التي تحققت آنذاك، فكان لهذا المعبر التاريخي بين الشرق والغرب دور هام في تهيئة الأجواء لأولى البعثات التي تكلمنا عنها سلفا في مواضع كثيرة. هذه البعثات التي على اختلاف مناطق تواجدها، حملت بين ظهرانيها أشخاصا كان هدفهم البعيد هو دراسة الإسلام لمعرفة كيفية مجابهته، ومن بين أشهر هؤلاء نجد "جربيردي أورلياك- gerbert de aurillac" الفرنسي الذي تدرج في السلك الكهنوتي حتى اعتلى أخيرا سدة البابوية سنة 999م، و لم يكن "دي أورلياك" وحده الذي ابتعث إلى ندلس وحواضرها بل كان هناك كثيرون غيره حملوا على كواهلهم هذه المهمة الشاقة. ومن بين هذا الكثير كان هنالك من درس القرآن وتعاليم الإسلام فقط لينشر ما يستطيع من أفكار مغلوطة عنه لدى مسيحيي الغرب، والتركيز عليها لإظهار المسلمين في صورة بعيدة عن الواقع، صورة تظهرهم كمتوحشين سفاكي دماء وثنيين. ومن أشهر هؤلاء نجد "بطرس المبجل" ** الذي اعتبر أن الإسلام في حقيقته ما هو إلا هرطقة مسيحية" هي آخر الهرطقات وأشدها ضررا، كما اعتقد أن التحدي الإسلامي لم يجد إجابة مسيحية مناسبة حتى أيامه".[1] ومن أجل أعماله- أيبطرس المبجل- التي رغم هدفه المعلن منها إلا أنها تبقى ذات قيمة معرفية وتاريخية بالخصوص نجد ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللاتينية لأوّل مرة، وذلك سنة1143م. ولا أدل على صحة هدفه من أقواله حيث يقول : " إذا بدا أن العمل الذي أدعو إليه غير ضروري الآن لأن العدو لن يتأثر بهذا السلاح، أجيب أن بعض الأعمال تتم من أجل ضرورات الدفاع، وهذا هو العمل الذي أقوم به أنا فإذا لم يكن بهذا الطريق إعادة المسلمين إلى المسيحية الصحيحة، فلا أقل من أن يستفيد العلماء المسيحيون من عملنا في مجال دعم إيمان المسيحيين السذج الذين يمكن أن تضير هذه الصغائر عقيدتهم"،[2] وظلت العقلية الغربية المسيحية تفكر بهذا الشكل إلى ما قبل الحروب الصليبية إذ كانت على معرفة ناقصة جدّا بالشرق " وإن لم يكن لها عذر في ذلك" ومع أنها كانت تعايش الأندلس الإسلامية، إلا أن التعصب الديني الشديد لم يدع لها مجالا كافيا للتفكير بطريقة موضوعية ومحايدة هدفها هو الوصول إلى الحقيقة مهما كان لونها أو جنسها، ومهما كان من أمر ومهما قيل، فإننا يجب أن نقر بأن ما حدث إبان هذه المرحلة

[1] المرجع السابق. ص 39.

[2] المرجع السابق ص.40.

الأولى أو الطور الأول، كان له عظيم الأثر في رسم العلاقات وخطوطها العريضة بين الشرق المسلم والغرب المسيحي، هذا الأثر الذي ألقى ولا زال يلقي بظلاله إلى يومنا هذا.

ب–الطور الثاني :

لقد كان للجهود التي قام بها المستشرقون الأوائل، المترهبنون منهم خاصة والدعاية التي حملوا لواءها ضد الإسلام كعقيدة وأسلوب حياة وعلى المجتمع والدولة الإسلامية كليهم لكيانين يمثلان الإسلام، نقول كان لهذه الدعاية أثرها في خلق نوع من التوجس والخيفة أول الأمر، لكنها سرعان ما تحولت إلى حقد وكراهية متأصلين وإلى عداء لامتناه لكل ما يمثل الدولة العربية الإسلامية وكل ما يمت إليها بصلة قريبة كانت أو بعيدة ،وخاصة في الأوساط الشعبية والطبقات الكادحة التي كانت تحت رحمة السلطة الكنسية في أغلب أصقاع أوروبا، وقد عمل هؤلاء الدعاة الذين أدركوا مدى قوة الدين الإسلامي، بجد واجتهاد على استثارة العواطف الدينية لدى الشعوب الأوروبية الغارقة في الجهل والجهالة إلى جانب نشر أفكار مغلوطة عن الشعوب العربية آنذاك وعن عاداتها وتقاليدها وتصويرها كأنها جيوش من الغيلان لا غاية من وجودها إلا سفك الدماء وقتل الآخرين والتخريب والدمار اللامبرر .كل هذا إضافة إلى بداية ظهور الأطماع المادية والسياسية لدى حكام أوروبا تجاه الشرق، نظرا للخيرات والكنوز التي تزخر بها المنطقة وإستراتيجية المكان وأهميته بالنسبة للتجارة وغير ذلك. كل هذا الزخم المستمر عبر قرنين من الزمان، في ظل شد وجذب وصدامات عديدة زاد احتكاك كل طرف فيها بالآخر ،كما زادت معرفته به، فكان ذلك مقدمة لحدث مهم جدّا في تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب، حدث سيكون له وزن وأثر عظيم على مستقبل كلا الجبهتين المتصارعتين.

و نحن هنا نتحدث عن الحروب التي سماها الغرب " حروب الاسترداد" وسماها العرب المسلمون" الحروب الصليبية". جاءت الحروب الصليبية تعبيرا عن الشعور بالتحدي الذي كانت الحضارة الإسلامية بكل تجلياتها تمثله للغرب وشكلت تلك الحروب نمطا صداميا في العلاقات الأوربية مع العالم الإسلامي يومذاك "بحيث استمرت تستترف أوروبا وديار المسلمين على السواء طوال ثلاثة قرون متوالية بعد بدايتها عام1097م ونهايتها عام 1291عندما انتصر المماليك في معركة عكا التي كانت النهاية لتلك الحروب الدموية".[1]وإن كان هذا الجانب هو الطاغي على

[1] "نقد الخطاب الاستشراقي".ساسي سالم الحاج. ص 44.

مكانة وصورة الحروب الصليبية في الذاكرة الشرقية العربية، فإنها ومن جانب آخر مثلت نقطة تحول فيمسار الإستشراق الأوروبي، إذ و من خلال التغلغل الذي قامت به القوات المسيحية تمكن المستشرقون ولأول مرة ربما من الاقتراب فعلا من المخزون المعرفي الهائل الذي كانت تزخر به مكتبات الشرق ودكاكينه والاستفادة بطريقة مباشرة منه، خاصة في نقل بعض العلوم التطبيقية كالرياضة، والفلك والطب والتي كانت أوروبا في حاجة ماسة إليها لتطوير وسائل الحماية للبشر، ولكن خاصة للبدء بالخروج من تلك الظلامية التي كانت تسد كل طريق نحو التحضر والتحرر، وبالتالي التأسيس لنموذج حضاري يتخذ علوم العرب أساسا له، فعلى سبيل المثال عندما اضطر المسيحيون للخروج من بلاد العرب عقب معركة عكا وذلك بصفة نهائية آنذاك، رافق ذلك الخروج الاستيلاء على آلاف من الكتب والمخطوطات العربية، ونقلت إلى المكتبات الأوروبية المختلفة".[1] و أغلبها لا يزال في هذه المواطن إلى يومنا هذا، ولقد كان من النتائج الملفتة للنظر لهذه الحروب ،أن الحماسة الدينية التي دفعت الصليبيين الأوائل لخوض الحرب كانت قد خبت وخبا معها المنطق العسكري بكامله، فاتجهت القرائح إلى طريقة وحيدة للعودة لهذه الديار، ألا وهي الطريقة السلمية، ومن أشكالها على سبيل المثال عودة البعثات العلمية، ومواسم إضافة إلى الرحلات التجارية، وبالتالي التقت أهداف الرهبان والتجارعلى اختلافها في المطالبة والسعي للعودة للشرق.

هكذا استمر سعي الأوروبيين نحو المخطوطات العربية، فجلبوا منها الكثير كماأسلفنا، وكانت أيضا هدفا مقصودا لبعض غارات الصليبيين على قوافل العرب، ومن الشواهد على ذلك ما أورده الفارس العربي أسامة بن منقذ في كتابه الشهير (سيرته الذاتية) "الاعتبار" إذ يقول:" فهوّن عليّ سلامة أولادي وأولاد أخي، وحرمنا ذهاب ما ذهب من المال، إلا ما ذهب لي من الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت."[2] وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن سوق الكتب العربية كانت سوقا ذات رواج. وأنها- أي الكتب- كانت سلعة مطلوبة وغالية في نفس الآن.

[1] الظاهرة الاستشراقية. ساسي سالم الحاج. ص44.

[2] "الف عام من الصدام والتفاعل بين العرب وأوروبا" سامي ذبيان.مجلة ألف العدد الأول سنة 2003.ص38.

وقد كانت الحروب الصليبية آنذاك منفذا جديدا نحو معقل هذه المخطوطات في الشرق، ولكن لم يكن ذلك فقط أثناء هذه الحروب، بل استمر على مدار القرون التالية[1].

هذه الأسباب والغايات مجتمعة أدت إلى زيادة الاهتمام بالشرق، والانكباب على تراثه الذي انتقل إلى أوروبا عن طريق المعابر الجغرافية المعروفة.[2] أيضا لا يفوتنا ذكر سبب آخر مهم دفع المسيحيين إلى تعلم اللغة العربية واللغات الشرقية الأخرى، ألا وهو الرغبة في التبشير، خاصة في ظل العجز الذي أظهره الرهبان والمبشرون، وذلك لأسباب أهمها جهل المبشرين بلغات الشعوب التي يراد التبشير فيها، والجهل بعقائد من يراد تبشيرهم و "عدم التمكن من الحجج والبراهين الفلسفية والعلمية التي تتخذ كأساس لدعوة غير المسيحيين."[3] فكان الاندفاع إذا لتعلم اللغة العربية خاصة، ولغات الشرق

عامة مبررا ومطلوبا، وكذا التزود من معين العلوم العقلية كالفلسفة وعلم الكلام وما شابه. ومنذ ذلك العهد بدأت المعاهد والجامعات التي عملت على نشر العلوم العربية واللغات الشرقية في الانتشار ،"وكانت أول مدرسة أنشئت للدراسات الشرقية هي مدرسة طليطلة التي أنشأها مجلس المبشرين عام 1250م، وكانت تدرس بها اللغتان العربية والعبرية..."[4] ، كما نذكر منشور البابا " أنوسنت الرابع" الذي صدر في "22 يونيه 1248م إلى مدير جامعة باريس بإنشاء كرسي للدراسات العربية والإسلامية بها."[5]

ومما سبق جميعا نرى بوضوح أثر الحروب الصليبية في تقدم الإستشراق خطوات عملاقة، خاصة بعد قرارات مؤتمر فيينا الكنسي، وظهور الطباعة في عهد متأخر نسبيا عن ذلك، كل هذا يبين لنا فعلا أن هذا الطور كان فعلا طور الانطلاق والتقدم الحثيث للإستشراق وإن ارتبط في معظم فتراته بالتبشير والعمل الكنسي.

---

[1] "الظاهرة الاستشراقية".ساسي سالم الحاج.ص 50/49.

[2] "الاعتبار" لأسامة بن منقذ. تحقيق فيليب حتى ص25.نقلا عن "الاستشراق الفرنسي والأدب العربي د.أحمد درويش. دار غريب. القاهرة دط.سنة 2004 ص 21.

[3] هذه المعابر هي القسنطينية، الأندلس وصقلية.

[4] "الظاهرة الاستشراقية" ساسي سالم الحاج. ص 50.

[5] المرجع نفسه. ص 51.

ج- الطور الثالث:

خلال القرون التي تلت الحروب الصليبية وبعدها وبعد الجهود المضنية التي قام بها أوائل المستشرقين من رهبان ورحالة رجال دولة والتي آتت أكلها في إدراك أوروبا لحجم التطور الحضاري الذي كانت تستقبل أمواجه متعاقبة.وبعد زمن من إنشاء الجامعات والمعاهد والدور التي قامت به في نشر ثقافة العرب وعلومهم هذا إضافة إلى تخريجدفعات من الطلاب الذي عملوا بدورهم على نشر تلك العلوم عدا عن السير على دربالأوائل من شيوخهم والتمثل بهم ومواصلة الرحلة في البحث والدراسة والتنقيب عنالنفائس الشرقية، كل هذا ضمن للغة العربية انتشارا واسعا في الأوساط العلمية وبين النخبة المثقفة وصانعي القرار أيضا بوصفها لغة عالمية ولغة الحضارة والتقدم، ومن ثم فإن تعلمها وآدابها أخذ بأحد أهم أسباب النهضة المرجوة في أوروبا بأسرها.ومن المشاهد الشاهدة على ذلك ظهور "أول آجرومية عربية طبعت في أوروبا وهي التي أصدرها بطرس دي القلعة(pedro de alcala) في غرناطة سنة 1505م...أما أول كتاب صدر في أوروبا بالأحرف العربية فقد كان كتاب صلاة الصاوي الذي طبع عام 1514م في البندقية."[1]

ولا يجب أن ننسى حدثا هاما جدّا وخطيرا في آن واحد، ذلك هو سقوط غرناطة الأندلس سنة 1492م. إن الاستيلاء المتوالي على دويلات الطوائف هناك أتاح للغالب الاسباني الحصول على ارث من الكتب والمخطوطات التي لم يكن يحلم حتى بالنظر إليها، وذلك ماساهم في فتح آفاق على المستشرقين غير متوقعة، فاستولوا على هذا التراث وجمعوه في مكتباتهم، وعكف عليه المستشرقون بحثا وتحليلا، و لم يتركوا جانبا من جوانبه إلا تناولوه بالدرس والتحليل والتحقيق، فتكونت لديهم معارف واسعة عن الشرق من حيث شعوبه وعاداته واقتصادياته وطرق تجارته، ومواطن القوة والضعف فيه، فنشأت دراسات تحليلية عن هذه الأصقاع أعطت صورة أوضح لما هي عليه ،" وإن كانت أوروبا لا تزال تعاني من إيديولوجيتها التعسفية".[2] إلا أن ذلك لا يقلل أبدا من اعترافها الضمني بجدارة الحضارة العربية، وليس أدل على ذلك من زيادة الاحتياج إليهابوتيرة متصاعدة آنذاك وإن اختلفت الدوافع والأهداف.

---

[1] المرجع السابق. ص 51

[2] "فلسفة الاستشراق و اثرها في الأدب العربي المعاصر. أحمد سمايلوفيتش. ص 77.

ورغم سقوط الأندلس وحجم الثروة المعرفية التي باتت تحت أيدي المستشرقين وغيرهم من الهيئات كالمعاهد والجامعات والمكتبات الكبرى في أوروبا إلا أن النهم إلى زيادة المعرفة بالشرق وأحواله لم يتوقف أبدا خاصة بعد سقوط " القسطنطينية وبروز الدولة العثمانية كقوة كبرى على الساحة، هذه الدولة التي تمركزت ككيان مدافع عن الإسلام والمسلمين، مما دفع الغرب إلى محاربة الأتراك أولا، ومنعهم من التوسع في أوروبا ثانيا، وهو ما تم لهم فعلا عند قهرهم جيوش العثمانيين عند أسوار فيينا.

ومن الأمور المستجدة نوعا ما في هذه المرحلة اتجاه جهود الإستشراق إلى الشرق عامة بعد أن كان أغلب اهتمامهم منصبا على العالم العربي الإسلامي فمن جهة نجد " الاستكشافات الجغرافية الأوروبية، وأثرها في تحويل طرق التجارة العالمية إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، والرحلة العظيمة التي قام بها ماركو بولو إلى الصين، وما كشفته عن ثروات تلك الشعوب وحضارتها المتطورة".[1] كل هذه الانجازات ساهمت في تذليل الفوارق الجغرافية وفتح العالم على صفحة جديدة مقبلة متمثلة أساسا في نمو أطماع الدول الأوروبية خاصة في العوالم الجديدة المكتشفة، من "العالم الجديد"[2] ، إلى اكتشاف الصين وعوالمها السحرية، إلى الوقوف على روعة الهند ومدى أهمية موقعها الجغرافي سياسيا واقتصاديا.[3]

طمع الغرب إذا في الاستيلاء على هذه الأصقاع والهيمنة على مقدراتها المختلفة ،وهذه المشاريع وغيرها لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتم دون أن تسبقها دراسات مفصلة لإعطاء فكرة واضحة لا غموض فيها، وقائمة على أساس منهج علمي دقيق من البحث والتحليل توطئة في الأخير الاستعمار هذه الأصقاع.

وليس هناك من يستطيع القيام بمهمة إعداد هذه التقارير بجدارة و عزيمة أكثر من المستشرقين والمبشرين أيضا، فسخرت لهم حكوماتهم المال الوفير والحماية اللازمة لانجاز رحلاتهم إلى شتى

[1] "الظاهرة الاستشراقية، ساسي سالم الحاج. ص 57.

[2] "العالم الجديد" لفظة أطلقت على أمريكا الشمالية لدى اكتشافها أواخر القرن الخامس عشر على يد كريستوف كولومبوس سنة 1492م.

[3] ينظر "دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في القرون الوسطى". جوزيف نسيم يوسف. مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع. دط.1988م.

أصقاع الشرق وإتمام مهماتهم، وقد قام المستشرقون والمبشرون بدورهم على أكمل وجه تجاه حكوماتهم، فقدموا إليها ما تحتاج إليه من تراث الشرق لفهم عقليته وأمزجته وتفاصيل كينونته، ومما ساعدهم على ذلك اختلاطهم بأهل تلك الشعوب تجارا ورحالة ومبشرين وطلابا وقناصل.

مما سبق نستطيع أن نطلق على هذه المرحلة من تاريخ الإستشراق "مرحلة التجسيد" أو " مرحلة الإثمار" أين بدأت بالفعل تظهر ثمار عمل المستشرقين وجهودهم التي استمرت طيلة قرون عديدة متتابعة ميزها الجد والنشاط والتفاني في طلب العلم والبحث والدراسة والتحليل، وقد كان العمل اللاحق لهذه القرون وكذا الاكتشافات العديدة سواءا الجغرافية منها أو العلمية (كظهور الطباعة وما صاحبها من ثورة في تاريخ البشر كافة) تجسيد رائعا لروح الإستشراق، إضافة إلى أهم ما ميز جهود المستشرقين في هذاالعصر، ألا وهو التمهيد لظهور الاستعمار الغربي في القرون اللاحقة.

والآن وبعد هذه اللمحة الموجزة عن مراحل الإستشراق وأهم ما ميز كل مرحلةبذاتها، نمر إلى الحديث عن أهم المدارس الإستشراقية الغربية مع إلقاء الضوء على بعض أهم رجالاتها.

الفصل الثاني

موقف الرافعي من الاستشراق.

المبحث الأول: التعريف بشخصية مصطفى صادق الرافعي

مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد عبد القادر الرافعي العمري (1298ه-1356ه) الموافق ل 1 يناير 1880- 10 مايو 1937م ولد في بيت جده لأمه في قرية " بهتيم " بمحافظة القليوبية " في أول وعاش حياته في " طنطا "، ينتمي إلى مدرسة المحافظين وهي مدرسة شعرية تابعة للشعر الكلاسيكي لقب بمعجزة الأدب العربي، تولى والده منصب القضاء الشرعي في كثير من أقاليم مصر، وكان آخر عمل له هو رئاسة محكمة " طنطا " الشرعية، أمّا والدة الرافعي كانت سورية الأصل كأبيه وكان أبوها الشيخ الطوفي تاجر تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام، وأصله من حلب، وكانت إقامته في " بهتيم " من قرى محافظة القليوبية ".[1]

ولد مصطفى صادق الرافعي في يناير سنة 1880 أرادت أمه أن تكون ولادته في بيت أبيها في قرية " بهتيم "، يعود نسبه إلى الخليفة عمر بن الخطاب. [2]

دخل الرافعي المدرسة الابتدائية في " دمنهور " حيث كان والده قاضيا بها، وحصل على الشهادة الابتدائية بتفوق ثم أصيب بمرض يقال أنه " التيفودا " أقعده عدة شهور في سريره وخرج من هذا المرض مصاباً في أذنيه، واشتد به المرض في فقد سمعه نهائيا في الثلاثين من عمره، لم يصل الرافعي في تعليمه النظامي على أكثر من الشهادة الابتدائية، مثله مثل " العقاد " في تعليمه، فكلاهما لم يحصل على شهادة غير الشهادة الابتدائية كذلك كان الرافعي صاحب عاهة دائمة في فقدان السمع، ومع ذلك فقد كان الرافعي من أصحاب الإرادة الحازمة القوية فلم يعبأ بالعقبات، وإنّما اشتد عزمه وأخذ نفسه بالجّد والاجتهاد، وتعلم على يد والده وكان أكثر عمل عائلته في القضاء[3]، لم يستمر الرافعي طويلا في ميدان الشعر فقد انصرف عنه إلى الكتابة النثرية لأنه وجدا أطوع، وأمام ظاهرة انصرافه عن الشعر يتبين أنه كان على حق في هذا الموقف، فعلى الرغم ممّا

[1]- مصطفى صادق الرافعي، سيرته وحياته، د. مصطفى نعمان السامرائي، دار المعرفة، بغداد، 1977، ص 23-24.

[2]- المرجع نفسه.

[3]- المرجع نفسه.

أنجزه في هذا الميدان الأدبي من نجاح، ورغم أنه استطاع أن يلفت الأنظار، إلاّ أنه في الواقع لم يكن يستطيع أن يتجاوز المكانة التي وصل إليها الشعراء الكبار في عصره، وخاصة أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، فقد غير هذان الشاعران عن مشاعر الناس وهمومهم في هذا الجيل.

ولعل الرافعي هو من طلق أول صرخة اعتراض على الشعر العربي التقليدي في أدبنا، فقد كان يقول " إن في الشعر العربي قيوداً لا تتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبّر به عن نفسه وهذه القيود هي الوزن والقافية، كانت وقفة الرافعي ضدّ قيود الشعر التقليدية أخطر وأول وقفة عرفها الأدب العربي في تاريخه الطويل وأهميته هذه الوقفة أنها كانت في حوالي سنة 1910 وقبل ظهور معظم الدعوات الأدبية الأخرى التي دعت إلى تحرير الشعر العربي جزئيا أو كليا من الوزن والقافية. [1]

الميدان الأول الذي انتقل إليه الرافعي، الذي كان مقيداً بالوزن والقافية هو ميدان النثر الشعري الحر في التعبير عن عواطفه العتيقة التي كانت تملأ قلبه ولا يتعداها إلى تصرفات خرج بها عن حدود الإلتزام الأخلاقي والديني كما كان يتصوره، أما الميدان الثاني الذي خرج إليه الرافعي فهو ميدان الدراسات الأدبية وأهمّها كان كتابه عن " تاريخ آداب العرب " وهو كتاب بالغ القيمة ولعله كان أول كتاب في موضوعه يظهر في العصر الحديث، لأنه ظهر في أوائل القرن العشرين وبالتحديد في سنة 1911 ثم كتب الرافعي بعد ذلك كتابه المشهور " تحت راية القرآن " وفيه يتحدث عن إعجاز القرآن، ويرد على آراءه الدكتور " طه حسين " في كتابه المعروف باسم " في الشعر الجاهلي ". [2]

يأتي الميدان الأخير، التي تجلت فيه عبقرية الرافعي ووصل إلى مكانته العالية في الأدب العربي المعاصر والقديم، وهو مجال المقال والذي أخلص له الرافعي في الجزء الأخير من حياته وأبدع فيه إبداعاً بحيثاً، وهذه المقالات جمعها الرافعي فكانت كتابه " وفي القلم ".

[1]- مصطفى صادق الرافعي سيرته وحياته، د. مصطفى نعمان السامرائي، دار المعرفة، بغاد، 1977، ص 24-25.

[2]- المرجع نفسه.

وفاته:

في يوم الإثنين العاشر من مايو لعام 1937 استيقظ الرافعي لصلاة الفجر، ثم جلس يتلوا القرآن، فشعر بحرقة في معدته، تناول لها الدواء، ثم عاد إلى مصلاه، ومضت ساعة ثم نهض وسار، فلما كان بالبهو سقط على الأرض، ولما هب له أهل الدار وجدوه قد أسلم الرقي، وحمل جثمانه ودفن بعد صلاة الظهر، إلى جوار أبويه في مقبرة العائلة في " طنطا "، توفي مصطفى الرافعي عن عمر ناهز 57 عاماً. [1]

– آراء حول مصطفى صادق الرافعي:

جاء في مقال للأستاذ وائل حافظ حلف نشرته مجلة المجتمع الكويتية في ذكرى وفاة الرافعي (2012-05-05) بعنوان (الرافعي... نابغة الأدب وحجة العربي).

كتب إلى الرافعي الإمام محمد عبده: " ولدنا الأديب الفاضل مصطفى آفندي صادق الرافعي، زاده الله أدباً، لله ما أثمر أدبك، ولله ما ضمن لي فليك، لا أقارضك ثناء بثناء، فليس ذلك شأن الآباء مع الأبناء، ولكني أعد لئن خلص الأولياء، وأقدم صفك على صف الأقرباء، وأسأل الله عز وجل أن يجعل للحق من لسانك سيفاً بمحق الباطل، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسّان في الأوائل، والسلام".

وقال الزعيم مصطفى كامل: " سيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس: هو المحكمة العالية مُصوغة في أجمل قلب من البيان ".

وقال واصفاً إياه السيد " محمد رشيد رضا " منشئ مجلة " النار"، " الأديب الأروع والشاعر الناثر المبدع، صاحب الذوق الرقيق، والفهم الدقيق، الغواص على جواهر المعاني الضارب على أوتار مثالثها والمثاني ".

[1]– حياة الرافعي ص 341، محمد سعيد العريان.

وقال عنه الأديب " عباس محمود العقاد " بعد وفاة الرافعي بثلاث سنين " إن للرافعي أسلوباً جزرً، وإن له من بلاغة لإنشاء ما يسلكه من الطبقة الأولى من كتاب العربية المنشئين ".

وقد قال قبل (قبل أن تدور في الحرب بينهما ببضع عشرة سنة): " إنه ليتفق لهذا الكاتب من أساليب البيان ما لا يتفق مثله لكاتب من كتاب العربية في صدر أيامها ". [1]

مؤلفاته:

1- ديوان الرافعي: "ثلاثة أجزاء " صدرت طبعته الأولى بين سنتي 1903-1906، وقدم لكل جزء منها بمقدمة في معاني الشعر تدّل على مذهبه ومنهجه، وهي مذيلة بشرح ينسب إلى أخيه المرحوم " محمد كامل الرافعي "، وإنما هي من إنشاء الرافعي.

2- ديوان النظرات: (شعر) صدرت طبعته الأولى عام 1908م.

3- ديوان الإنشاء: كتب مدرسي يحتوي على نماذج أدبية من إنشائه، أعّد أكثر موضوعاته وهيأ لإصداره سنة 1007، ونشر منه بعض النماذج في ديوان النظرات، ثم صرفته شؤون ما عن تنفيذ فكرته فأغفله، وقد صانعت أصوله فلم يبق إلاّ لنماذج المنشورة منه في ديوان النظرات.

4- تاريخ " آداب العرب ": (ثلاثة أجزاء) صدرت طبعته الأولى في جزئين عام 1329ه-1911م، وصدر الجزء الثالث بعد وفاته بتحقيق " محمد سعيد العريان " وذلك عام 1359 ه الموافق لعام 1940م، يراه أكثر الأدباء كتاب الرافعي الذي لا يعرفونه غلا به.

5- إعجاز القرآن البلاغة النبوية: (وهو الجزء الثاني من كتابه تاريخ آداب العرب) وقد صدرت طبعته الأولى باسم (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) عام 1928م.

[1]- المرجع نفسه.

6- حديث المهر: أول ما أصدر الرافعي في أدب الإنشاء، وهو أسلوب رمزي في الحلب تغلب عليه الصنعة، أنشأه بعد رحلته إلى لبنان في سنة 1912، حيث التقى لأول مرة بالآنسة الأدبية "ماري يني " فكان بينهما ما كان. [1]

7- المساكين: سطور في بعض المعاني الإنسانية ألهمه أباها بعض ما كان في مصر من آثار العرب العامة، صدرت طبعته الأولى عام 1917م.

8- نشيد سعد باشا زغلول: كتيب صغير عن نشده (إسلمي يا مصر) الذي أهداه إلى المرحوم سعد زغلول في سنة 1923، طبع في مكتبة السلفية بالقاهرة، وأكثرها في الكتاب من المقالات هو من إنشاء الرافعي أو إملائه.

9- النشيد الوطني المصري: (إلا العلا...) ضبط ألحانه الموسيقية الموسيقار منصور عوض.

10- رسائل الأحزاب: كتاب أنشأه في سنة 1924 يتحدث فيه عن شيء مما كان بينه وبين فلانة على شكل رسائل يزعم أنه من صديق يبثه ذات صدره.

11- السحاب الأحمر: هو الجزء الثاني من قصة حب فلانة، أو الطور الثاني من أطواره بعد القطيعة صدر بعد رسائل الأحزاب بشهر.

12- تحت راية القرآن: مقالات الأدب العربي في الجامعة، والردّ على كتاب في الشعر الجاهيي " لطه حسين " صدر في سنة 1926.

13- علي السعود: وهو ردّ على " عباس محمود العقاد "، نشرته مجلة العصور في عهد منشئها الأول الأستاذ " إسماعيل" مظهر، و لم تذكر اسم مؤلفه رمزت إليه بكلمة: إمام من أئمة الأدب العربي.

[1]- جيل جديد أثر المرأة في إبداع الرافعي نسخة محفوظة 24 أكتوبر 2018 على موقع واي باك متشين.

14- أوراق الورد: الجزء الأخير من قصة حبه، يقوم على رسائل في فلسفة الجمال والحب أنشأها ليصور حالاً من حاله فيما كان بينه وبين فلانة، ممّا كان بينه وبين صديقته الأولى صاحبه حديث القمر.

15- رسائل الرافعي: وهي مجموعة رسائل خاصة كان يبعث فيها إلى محمود " أبي رية " وقد اشتملت على كثير من آرائه في الأدب والسياسة ورجالها.

16- موعظة الشباب ((مسرحية):

17- ألف الرافعي النشيد الوطني التونسي بعد إضافة بيتين للشاعر أبو القاسم الشابي وهو النشيد المعروف بحماة الوطن ومطلع القصيدة. [1]

18- رواية حسام الدين الأندلسي (مسرحية): طبعت بمطبعة الواعظ بمصر سنة 1322ه 1905م، و لم تذكر في كتب من كتب عن الرافعي، ولا حتى عند العريان. [2]

1- كتاب " تحت راية القرآن ":

هو واحة من أشهر كتب الأديب مصطفى صادق الرافعي،والرافعي واحد من أشهر أقطاب الأدب العربي، فقد حقق هذا الكتاب مبيعات ضخمة وتصدر قائمة الكتب الأهم في ساحته، كما أنه قد أحدث ضجة كبيرة وجذب الانتباه إليه نتيجة تميزه وتفرده في الأسلوب.

فكتاب " تحت راية القرآن " معرفة بين القديم والحديث كتب الأديب مصطفى صادق الرافعي ردّا على ما كتبه " طه حسين " في كتابه عن الشعر الجاهلي والذي حصده الكثير من الانتقادات والملاحظات، التي وصل بالبعض أن يتهمه بالكفر والزندقة وقد رأى الرافعي في هذا الكتاب خطرا كثيرا فقام الرافعي كما قام بعض أقرانه والنقاد الآخرين بالرد على هذا الكتاب،

[1]- النشيد الوطني التونسي نسخة محفوظة 10 يناير 2017 على موقع " واي باك مشين ".

[2]- مسرحي مجهول لمصطفى صادق الرافعي، مصطفى يعقوب عبد النبي نسخة محفوظة 25 أكتوبر 2014 على موقع " واي باك مشين ".

واعتمد الرافعي في هذا الكتاب مجابهة الحجة، فأخذ يهدم في كلاهم طه حسين ورأيه بالحجة القاطعة التي ليس لها غيار، وهذا الكتاب تبيان غلطات المحدّدين الذين يريدون بأغراضهم وأهوائهم أن يبتلوا الناس في دينهم وأخلاقهم ولغتهم. [1]

وهو في الأصل مجموعة مقالات كان ينشرها في الصحف في أعقاب خلافة مع د. طه حسين، وكتابه في " الشعر الجاهلي " حيث تحتل معظم صفحات كتاب " تحت راية القرآن " ردود على كتاب د. طه حسين. [2]

ومن مقطفات الكتاب يقول: " وصاحبنا يرجع في ذلك إلى طبع ضعيف لم تحكمه صناعة الشعر، ولا راضته مذاهب الخيال، ولا عهد له بأسرار الإلهام التي صار بها الشاعر شاعراً، ونبغ الكاتب كاتباً، وما هو إلا ما ترى من خلط يسمى علماً، وجرأه تكون نقداً تحامل يصبح رأياً، "وتقليد للمستشرقين يسميه اجتهاداً " وغض من الأئمة يجعل به الرجل نفسه إماماً، وهدم أحمق يقول هو البناء وهو التجديد، وما كنا نعرف على التعيين ما الجديد أو التجديد في رأي هذه الطائفة حتى رأينا أستاذ الجامعة يقرّر في مواضع كثيرة من كتابه أنّه هو الشك، ومن ذلك شيئا تعرف به، ومذهباً تجادل فيه، لأن للمنطق قاعدتين إحداهما تصحيح الفاسد بالقياس والبرهان " والأخرى إفساد الصحيح بالجدل والمكابرة ".

3- كتاب أوراق الورد:

كتاب أوراق الورد رسائله ورسائلها هو أشهر كتب الأديب مصطفى صادق الرافعي الأدبية، وقد تصدر هذا الكتاب قائمة الكتب الأكثر مبيعاً وحقق شهرة واسعة، وقد نشر هذا الكتاب عن مؤسسة " هنداوي " للتعليم والثقافة في 259 صفحة باللغة العربية، وهو أول رحلة الأديب " مصطفى صادق الرافعي " في الكتابة عن الحب، وفي صياغة المشاعر التي تختلج نفسه بها.

[1]- قصة الإسلام، تحت راية القرآن نسخة محفوظة 17 أبريل 2015 على موقع واي باك مشين.

[2]- المكتبة الشاملة بنسخة محفوظة 25 سبتمبر 2017 على موقع واي باك مشين.

المبحث الثاني: البحث عن أهم كتبه حول الإستشراق.

تاريخ آداب العرب:

هو واحد من أشهر كتب الأديب والشاعر والفيلسوف القرآني الشهير مصطفى صادق الرافعي، وقد حقق هذا الكتاب مبيعات ضخمة. وتصدر قائمة الكتب الأهم في مجاله، كما أنه قد أحدث ضجة كبيرة وجذب الإنتباه إليه نتيجة تميزه وتفرده في الأسلوب، فهو أوّل الكتب التي كتبها الرافعي بعد ما قرّر أن ينصرف عن الشعر ويتجه إلى الكتابة النثرية لأنه وجد فيها مبتغاه ومراده، وقد أخرج الرافعي هذا الكتاب وكان لا يزال في الثلاثين من عمره، ولكن الكتاب أصبح مرجعًا مميزا في ساحته وأثنى عليه الكثير.

ويحاول الرافعي في هذا الكتاب أن يشير إلى تاريخ آداب العرب وتراثه، فالرافعي يرى أن تاريخ آداب أي أكة يجب أن يكون منفصلاً عن حوادثها الأدبية، لأنها مفاصل عصزرها المعنوية".

قد كانت أعمال الرافعي مقصورة الشعر والعناية به، قبل أن يقرر ترك منظوم الكلام ويتجه نحو منثوره، فقد حاد الرافعي عن مذهبه المعهود، وشرع في طريق التأليف والكتاب، وكان هذا الكتاب هو بداية هذا التحوّل، ورغم حداثة عهده بالكتابة البحثية العلمية إلا أنّه أخرج لنا عملاً تاريخيا ونقديًّا رصينا.

عدد أجزاء الكتاب يتكون من ثلاثة أجزاء[1].

3-كتاب "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية":

هذا الكتاب القيم برز أديب العربية الكبير "مصطفى صادق الرافعي" صادق اللهجة كإسم أبيه، رفع البيان كلقبه، فهذا الكتاب هو باب من أبواب كتابه الكبير "تاريخ آداب العرب"، تناول في هذا الكتاب "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية".

[1]- المرجع نفسه.

تناول فيه المؤلف الحديث عن إعجاز القرآن، وقد أخذ على ثلاثة أرباع الكتاب تقريبا، والربع الأخير أخلصه الحديث عن بلاغة رسول الله صللى الله عليه وسلم في حديثه.

وقد كان عمل الرافعي في الحديث عن إعجاز القرآن ليس كعمل من سبقه من العلماء الذين تحدثوا عن هذا الموضوع القرآني، بل أراد بخوض غماره تخصيصه بالحديث عن لغته وبلاغته وأوجه الإعجاز في ذلك فحسب، لكنّه قدم بين يدي موضوعه الخاص مقدمات وأردفه بمتمّمات، فكانت موضوعات الكتاب هي: القرآن، تاريخ القرآن، جمعه وتدوينه، القراءة وطرق الآداء، القراء وجوه القراءة، قراءة التلحين، لغة القرآن الأحرف السبعة، مفردات القرآن، تأثير القرآن في اللغة وغيرها... فقد قطف الرافعي اللغة والأدب في الدفاع عن القرآن وإعجازه.

صدر عام 1912م، كما تناول فيه الرافعي عن آداب القرآن وأخلاقه، وأثرها في النفس الإنسانية، والروح البشرية، وكيف جعلت العرب ملوكًا وسادة الأرض وقد كانوا من قبله لما بين داعٍ للصنم وراع للغنم، وعالم على وهم وجاهل على فهم، ثم انتقل من آداب القرآن إلى علومه. مبينًا أثره في العلم والنهضة الإسلامية، لأنه حث على طلب العلم، والنظر والإعتبار الإستنتاج. ويشير لنشأة العلوم وتمحيصها وغايتها وعلاقتها بالقرآن.

تحدث عن نشأة الجنسية العربية، وكيف ألف القرآن بين مذاهب الفطرة اللغوية للعرب، ثم عمل على التوفيق قلوبهم بالدين الطبيعي الذي جاء به، وفي فصل البلاغة النبوية تحدث عن فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم وصفاته ومنطقه وبلاغته، وعن تأثيره في اللغة، وبعض دعائم البلاغة النبوية. ويذكر أحاديث قليلة مبيّنًا بلاغتها، ودقة ألفاظها[1].

[1]- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية "مصطفى صادق الرافعي" دار الكتاب العربي بيروت لبنان ط9-1393- 1973م، ص96.

4-كتاب "وفي القلم":

كتاب وفي القلم هو واحد من أشهر كتب الأديب والشاعر والفيلسوف القرآني الشهير مصطفى صادق الرافعي، وقد حقق هذا الكتاب أيضا مبيعات وضجة كبيرة وجذب الإنتباه إليه نتيجة تميزه وتفرده في الأسلوب.

وأسلوب مصطفى صادق الرافعي يتميز بالفرادة، فمن النادر أن تجد الأدباء أخذ يطوع اللغة في يديه كالعجين كما يفعل الرافعي، فترى اللغة في يديه سهلة وترى إنتاجه الأدبي غاية في التميز، وكتابات الرافعي تشعر القارئ بعزة اللغة العربية ورقيها وعظمة القلم وما يمكن أن يبدعه الكاتب بالقلم فقط. وكتاب "وفي القلم" هو كتاب من ثلاثة أجزاء من الأدب الرفيع للأديب الفريد "مصطفى صادق الرافعي" وهذا الكتاب عبارة عن مجموعة من المقالات النثرية والنقدية والإنشائية الفريدة للرافعي، ويرى البعض أن هذه المقالات هي أفضل ما كتب الرافعي طيلة حياته.

وقد بدأ الأديب مصطفى صادق الرافعي بكتابة هذا المقالات في عام 1934م في مجلة الرسالة وجريدة المؤيد وجريدة البلاغ وجريدة المقتطف وغيرها من الصحف المختلفة، وكان يكتب المقالات في هذه الصحف بشكل دوري أسبوعي[1].

إن كتاب وفي القلم كتاب عظيم الفائدة فيه من كل شيء ولون، ففيه الأدب والأخلاق والعادات والتقاليد والحب والوصف والفلسفة والحكمة والعمق، العمق الذي يتصف فيه الرافعي كثيرا، فعمق الفكرة عنده تقود إلى عمق العبارة، وممّا قاله في كتاب وفي القلم من العبارات التي تستحق أن تكون إقتباسًا مثلاً:

-إنّ الأديب هو من كان لأمته ولِلُغتَها في مواهب قلمه لقب من ألقاب التاريخ.

-وما ذلّت لغة شعب إلا ذلَّ، ولا انحطت إلاّ كان أمره في ذهاب وإدبار، ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضًا على الأمة المستعمرة.

[1]- كتاب "وفي القلم" مصطفى صادق الرافعي"

-هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذي سيضع في العالم تمييزه بين الحق والباطل، وإن نيتهم أطهر من السحابة في سمائها، وإنهم جميعًا ينبعثون من حدود دينهم وفضائله، لا من حدود أنفسهم وشهواتها، وإذا سلّوا السيف سلّوه بقانون، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون[1].

[1] www. Abjjad. com- "وفي القلم" إطلع عليه بتاريخ 06- 01- 2020 بتصرف.

المبحث الثالث: موقف الرافعي من الإستشراق:

-بعد أن تعرفنا على مفهوم الإستشراق والذي هو حركة علمية وحكرية غربية لدراسة الشرق لعقائده وأديانه ولغاته وآدابه وفنونه). نأتي إلى التحدث بصفة خاصة على موقف الرافعي من الإستشراق:

والإستشراق الذي يعنينا نحن العرب المسلمون هو الذي يعنى بالخصوص بمنطقة الشرق الأوسط العربية الإسلامية، وبلغتها العربية كوعاء لدينها وأدبها وقوتها.

وعن بداية الإستشراق التاريخية تختلف وجهات النظر، فتذهب بعض الرؤى إلى أن إهتمام الغربيين بالشرق الأوسط وبعقائده وآدابه قد بدأ من قديم، حتى أنّه بدأ قبل مجيء الإسلام.

هذا عن الإستشراق كحركة ثقافية عامّة، أمّا عن الإستشراق كحركة غربية رسمية فقد بدأ بعد الحروب الصليبية، عندما اعتمدت مقاعد في بعض الجامعات الأوروبية لدراسة اللغة العربية.

الدراسات والأبحاث والكتابات حول الإستشراق كثيرة ومتنوعة، والرؤى فيه وفي الحكم عليه متنوعة كذلك، ما بين مثمّن مكبِر ومتهم ناقم[1].

ونحن هنا ننظر للإستشراق من زاويتين إثنتين يختلف الحكم على الإستشراق بينهما فأمّا إن نظرنا للإستشراق من ناحية أنه يقدم لنا نحن الشرقيين العرب منتجًا ثقافيا فكريا، فإن الحكم لابد حينها أن يكون بتقليل قيمة الإستشراق، والنظر إليه علىأنه محاولات تشبه محاولات المبتدئين في الحكم على علم لم يبلغوا فيه إلاّ مرحلة الإبتداء فالمستشرقون في هذه الناحية أشبه بالتلاميذ أمام أساتذة اللغة العربية الحقيقيين وأساتذة آدابها وعقائدها من أهل الشرق العربي.

والمستشرقون ما هم إلاّ جماعة من الغربيين حاولوا أن يتعلموا العربية ويبرعوا فيها ثم يطاولوا فيها أربابها من أهلها الأصليين، وأنّى لهم ذلك، وكيف يقبل عقل سليم أن يقارن بين أصيل نسب وبين دخيل مدّع[1].

[1]- راجي سلطاني- مجلة بصائر الفكر، 8 نوفمبر 2018.

مهما حاول المستشرقون أن يبرعوا ويحدقوا في فهم العربية وقواعدها وآدابها فلن يصلوا في ذلك إلى معشار ما وصل إليه أربابها الأصليون، الذين قعدوا لها ولآدابها.

وبالتالي فمن السخف أن ننظر لرأي المستشرقين في قضية من قضايا العربية وتقدمه على رأي أصوليها العرب، ومن السخف كذلك أن ننظر لرأي المستشرقين في قضية من قضايا القرآن والسنة، وتقدمه على رأي أصولي القرآن والسنة هما أعظم آداب العربية إذا نظرنا إليها باعتبارها نصوصاً أدبية عربية، ولن يفهم أحد هذه النصوص مثلها يفهمها أهل العربية الأصوليون من الأسلاف والقدماء ومن سار على رد بهم وشرب من معينهم من المحدثين.

لن يحيط المستشرقون بأصول اللغة العربية وقواعدها كما يحيط بها أربابها من العرب، ولن يحيط المستشرقون بأصول الأدب العربي وقواعده مثلما يحيط به أربابه من العرب، كذلك لن يحيط المستشرقون بأصول القرآن والسنة وقواعدها كما يحيط بهما أربابهما من العرب المستشرقون في ذلك عيال على وتلامذة لهم، ومن السخف أن نقيم لمنتجهم قيمة كبرى، بل ونتج بهم على علماء العربية وآدابها، وتنتصر لهم في بعض الأمور. [2]

ومثال على ذلك ما ردّه المستشرق الإنجليزي " ديفيد مرليوث " حول الشعر الجاهلي، حيث ذهب أنه في الحقيقة ليس شعراً جاهلياً للشراء الجاهلين عاشوا قبل الإسلام، وإنما هو شعر كتبه ورواه في العصر الأموي والعباسي ثم نسبوه لشعراء جاهلين.

فقد ردّ بهذا الرأي من بعد ذلك الدكتور " طه حسين " في كتابه (في الشعر الجاهلي)، والذي أحدث دويا هائلا في الأوساط العربية والإسلامية، فردّ عليه كثيرون، ومن أهم هذه الردود وأقواها كتاب الأستاذ مصطفى صادق الرافعي (تحت راية القرآن).

[1]- راجي سلطاني، مجلة بصائر الفكر، 08 نوفمبر 2018.

[2]- المرجع نفسه.

وما كان للدكتور " طه " أن يردّد ما ذهب إليه ذلك المستشرق مأخوذاً به معتقداً فيه، وهو الرأي الذي لم يقل به أرباب العربية وأساطينها وشعراؤها في العصرين الأموي والعباسي، ولا في ما بعدهما من عصور، وإن كان لهذا الرأي أي أرضية من صحة لما خفي عن هؤلاء الكبار، وهم قد عاشوا العصر نفسه، ورأوا هذا الدّخل الذي وضعه الرواة كما قال " مرجليوث " ورد " د. طه حسين " من بعده. [1]

إنبهارنا ينتاج المستشرقين وتصديقنا فيه وتقديمنا له على منتجنا العربي والإسلامي ما هو إلا مظهر من مظاهر الهزيمة النفسية أمام الغرب المتقدم الأخذ بزمام الحضارة في نسختنا المعاصرة الراهنة، وهو كما ذكر ابن خلدون في مقدمته (تقليد من المغلوب للغالب) حتى في آراءه الخاصة بلغة المغلوب وعقيدته وآدابه، وهل لنا نحن العرب والمسلمين أي رأي معتبر في لغات الغربيين وآدابهم !

أمّا إن نظرنا الاستشراق بالنسبة للغربيين، فهو ذو قيمة كبيرة لابد أن ننتبه لها نحن العرب المسلمون، فهو بوابة الغربيين لمعرفة العربية والإسلام، وكل صورة للغربيين وعن العرب والإسلام هي من رسم هؤلاء المستشرقين.

فلا يستطيع عموم الغربيين القراءة عن العربية والإسلام من نتاج العرب والمسلمين أنفسهم وذلك لضعف الترجمة عن العربية من ناحية، وكذلك لأن الغالب هو أن يقرأ من يحب أن يقرأ عن لغة أخرى أو عن دين أخر مما كتبه علماؤه ومفكروه بلغته، لأنه يكون حينها اختصاراً ملماً، ويكون بلغة السهلة التي يعرفها بعيداً عن تعقيدات الترجمة والمترجمات، ولأننا نحن العرب والمسلمون في أوج محنتنا الحضارية، وفي ذروة تخلفنا في كافة النواحي والأبعاد، فما زلنا إلى الآن في قمة فشلنا في نقل تراثنا الأدبي والفكري والإسلامي إلى الغرب.

[1] -راجي سلطاني- مجلة بصائر الفكر، 8 نوفمبر 2018.

فلم ينقل من تراث العرب والمسلمين إلى الغرب كما ينبغي أن يكون النقل إلى التراث العلمي والفلسفة،وهذا ما كان له أكبر الأثر في النقلة الحضارية الغربية، كما يعترف بذلك الغربيون أنفسهم.

أما التراث الأدبي والفكري، وخصوصاً بالإسلام وفلسفته، فهذا أما فيه أكبر الخلل والضعف في ترجمته ونقله.

ولقد كتب المفكر الجزائري " مالك بن نبي " مخاطبا به الغربيين كما يعتبر كتاب " طه حسين " مرآة الإسلام كتاب سرد قصّة الإسلام في أبسط صور السرد وأكثرها عمومية.

فالاستشراق تكمن قيمته ويكمن خطره في خطابه للغرب وتأثيره فيهم، وكونه مصدر المعرفة الوحيدة بالعربية والأدب العربي والإسلام، ولابدّ أن نواجه بمنتج عربي وإسلامي موجهاً أساسا للغرب بلغاته. [1]

لقد تزامن ظهور اسم الرافعي في الوسط الثقافي المصري مع احتدام السجال الفكري بين المحافظين والجوانبين.

وانسجاماً مع إرثه العلمي والعائلي، انجاز الرافعي للتيار المحافظ فكان من أنصار المدرسة الكلاسيكية في الأدب، فهاجم طه حسين واتهمه بتسفيه الأديان وتكذيب التاريخ.

وعندما شكل " طه حسين " في الشعر الجاهلي، رأى الرافعي وآخرون أنه كان يسيء للقرآن نظراً لكونه يتضمن آيات تؤكد تفوقه في الفصاحة والبلاغة على الشعراء.

وفي كتاب " تحت راية القرآن " كتب الرافعي مقالات عديدة تهاجم " طه حسين " وتنحته بالسفه وعمى البصيرة واختفاء أثر المستشرقين دون هدى ولا تمحيص.

[1]- محمد صادق الرافعي: " تحت راية القرآن "، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط7، 1399- 1974 مجلد 1 ص 292.

وقد انتهى " طه حسين " بنتيجة متبعاً فيها آراء كثير من المستشرقين، وهي نتيجة سلبية لا تصدر من باحث متمكن من مقومات تراث الأمة العربية والإسلامية، وفي مقدمة هذه المقومات الإيمان بقداسة النص القرآني، وبأنه قطعي النص والدلالة يقول د. طه حسين. [1]

الثورة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الإسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة.

قال د. طه حسين ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية، والتوراة والقرآن من جهة أخرى. [2]

والردّ على هذه الفردية التي تقدح في قداسة النص القرآني... لم تقتصر على الرافعي فقط بل تصدّى لها كثير من العلماء وفي مقدمتهم: " الأمير شكيب أرسلان "، والشيخ محمد الخضر حسين"، " ومحمد فريد وجدي "، ود. أحمد الغمراوي "، وغيرهم.

ومن الذين قاموا بالردّ المباشر بعض نواب البرلمان في هذا الوقت ومنهم النائب الأستاذ عبد الخالق عطية في جلسة يوم الإثنين 13 سبتمبر سنة 1926م.

وفي ردّه إشارة لقضية تربوية يجب أن تقتدي بها في مدارسنا وجامعاتنا ومعاهدنا العلمية وما أحوجنا إليها في هذا الوقت الذي كثر فيه المتقولون والأدعياء.

يقول النائب معلق على ما آثاره د. طه حسين من شكوك ومزاعم... وكذب وتلفيق حول القرآن: " إننا إذ نسلم أولادنا للحكومة ليتعلموا في دورها نفعل ذلك معتمدين على أن بيننا وبينها تعاقداً ضمني على أن الديانات محترمة، لا أقول تعاقداً ضمنياً فقط، بل صريحاً، لأن الحكومة تعني بتعليم الدين في مدارستها، ونضعه في مناهجها وإذا كان الأمر كذلك، فعلى الذين يريدون

[1]- مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، دار الكتاب العربي بيرق، لبنان ط 7 1394-1974، مجلد 1، ص 293.
[2]- المرجع نفسه.

أن يحرقوا بخور الإلحاد أن يحرقوه في قلوبهم، لأنهم أحرار في عقائدهم، أو أن يحرقوه في منازلهم، لأنهم أحرار في بيئاتهم الخاصة، أمّا أن يطلقوه في أجواء دور العلم ومنابر الجامعة فهذا لا يمكن أن نفهمه بأي حال من الأحوال.

ووصف الشيخ مصطفى القاياتي بأن ما جاء به د. طه حسين قبائع متعددة " ما بين تكذيب لصحيح التاريخ، وتكذيب لنصوص القرآن، ونسبة التحاليل إلى الله وإلى النبي محمد وإلى موسى عليهما السلام ". [1]

والرافعي يلخص تقويمه لشخصية د. طه حسين " مع تفنيد آرائه في أسلوب جاء ساخر يوجز الحقائق، ويجمل التفاصيل ولكنه يتوسع فيها بعد ذلك عبر مباحث الكتاب مستعينا بشاهادات المعاصرين من الباحثين والعلماء والنواب ورجال السياسة المنصفين فيقول معللاً فساد آراء د. طه حسين فيما يتعلق بالقضايا التي آثاراها في كتاب " الشعر الجاهلي "، وهي كثيرة:

" وصاحبنا يرجع في ذلك إلى طبع ضعيف لم تحكمه صناعة الشعر، ولا راضية مذاهب الخيال، ولا عهد له بأسرار الإلهام التي صار بها الشاعر شاعراً، ونبغ الكاتب كاتبا، وما هو إلا ما ترى من خلط بسمى علماً، وجرأة تكون نقداً، وتحامل يصبح رأيا، وتقليد للمستشرقين يسميه اجتهاداً "، وغض من الأئمة يجعل به الرجل نفسه إماماً، وهدم أحمق يقول هو البناء وهو التجديد، وما كنّا نعرف كل التعيين ما الجديد، أو التجديد في رأي هذه الطائفة حتى رأينا أستاذ الجامعة يقرر في مواضع كثيرة من كتابه أنه هو الشك، ومعنى ذلك أنك إذا عجزت عن نص تقرر به شيئاً فشك في النص القديم، فحسبك ذلك شيئاً تعرف به، ومذهباً تجادل فيه، لأن المنطق قاعدتين إحداهما تصحيح الفاسد بالقياس والبرهان: " والأخرى إفساد الصحيح بالجدل والمكابرة ".

[1]- مصطفى صادق الرافعي، " تحت راية القرآن "، دار الكتاب للنشر والتوزيع بيروت، لبنان ط7، 1394-1974، ص 294-295.

ثم يحترس الرافعي... ويزيل هذه المثالب التي شخص بها مسلك، د. طه حسين في منهجه وفي شخصيته.. ببعض المعالم الإيجابية التي يتسم يها، وهذا يؤكد أن الرافعي في تقويمه له لم يكن متجب، ولا مسفاً مثلما كان في " السفود " وهو يهجم على العقاد بكل ألوان السباب، وفي قلبهن الهجوم... تبرق شهب نقدية حارقة لا يستطيع العقاد لها دفعاً، ولكن " الرافعي " مع العقاد لم يكن منصفاً، ولم تكن غضبته للعلم وحده، ولم تكن غيره على الدين، وإنَما كانت رد فعل اتسم بالغضب الشديد والانفعال الجارح وكأنه استجابة مباشرة لقانون الطبيعة البشرية، وقوانين الحياة نفسها. [1]

" لكل فعل رد فعل مساولة في الحركة مضاد له في الاتجاه " وقصة الرافعي في مواجهة العقاد لها فضاء آخر... وسياق مغاير، يقول الرافعي... وهو يضع " طه حسين " فوق ميزانه النقدي والعلمي، أنه لولا ضعف خيال الدكتور " طه "، وبعده من الصناعة الفنية في الأدب، واستسلامه لتقليد الزنادقة، وبعض المستشرقين الذين لا يوثق برأيهم ولا يفهمهم في الآداب العربية، ثم لولا هذه العصبية المعقوتة التي نشأت فيه من هاتين الصفتين إلى صفات أخرى يعرفها من نفسه حق المعرفة لكان قريباً من الصحة فيما يرى، ولتدبّر الأمور بأسبابها القريبة منها واستعان عليها بما يصلحها، ولتوقى بذلك جناية التهجم التي هي في أكثر أحوالها علم الجهلاء وقوة الضعف، وكياسة العمقى وعقل الممرورين ". [2]

ويمكن أن نتهم الرافعي بالمبالغة في اتهام د. طه حسين وإلصاق كل هذه المثالب به... ولكن أرى أن أصاب كبد الحقيقة حين وصف صاحب كتاب في الشعر الجاهلي بأنه مستسلم لتقليد الزنادقة، وبعض المستشرقين الذين لا يوثق برأيهم ولا بفهمهم في الآداب العربية.

---

[1]- مصطفى صادق الرافعي: " تحت راية القرآن "، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ط7، 1394-1974، ص 295-296.

[2]- المرجع نفسه.

ولنتأمل دقة الرافعي في التفريق بين الزنادقة... وبعض المستشرقين وهذا كلام صائب ودقيق لأنه حدّد هذا " البعض " وهم الذين " لا يوثق برأيهم، ولا بفهمهم ومن المستشرقين المنصفين للحضارة العربية والفكر الإسلامي " توماس كارلايل " صاحب كتاب " " محمد المثل الأعلى في كل شيء " والكونت هنري ديك استري " صاحب كتاب " الإسلام خواطر وسوانح " " والمستشرق " فرانز روزنثال "، والمؤرخ الإنجليزي المسترشد " الذي يقول ويؤكد أنه " في الوقت الحاضر كثيرون من أبناء أوروبا قد دخلوا إلى الإسلام قد بدأ، وأحسن ما يقال: إن القرن الحادي والعشرين لن يمضي حتى تكون أوروبا قد اتخذته ديناً لها، وعهدت إليه في حل مشاكلها ".

أما المستشرقون الذين لا يوثق برأيهم ولا يفهمهم في الآداب العربية معهم الزنادقة الذين قلدهم طه حسين وإقراره بأنه مسلم و لم يتعمد الإساءة إلى الإسلام.

وقد انتهى الأمر إلى مصادرة الكتاب وإحالة د. طه حسين إلى النيابة، وحققت معه وانتهت إلى أن هذا البحث ليس من عمل الدكتور بل سبقه به المستشرقون ومنهم " مرجليوث " المستشرق الإنجليزي، وانتهت هذه القضية بقضها وقضيضها سنة 1926م، كما يقول الأستاذ حسين حسن مخلوف.

وخفضت النيابة الأوراق لعدم كفاية الأدلة ولثبوت حسن النية- فيما صدر من الدكتور " طه حسين ".[1]

ومن الحقائق التي تؤكد تقليد طه حسين وإتباعه لما قاله المتشرقون... ماورد من آثار لهم في دراسته الأدب العربي وتحقيق دواوين الشعر الجاهلي، وحيث تصدق هذه الحقيقة... فإنها أصدق تهمة توجه إلى عميد الأدب العربي الذي رفع لواء التجديد، وهو في الحقيقة يلبس مسوح التقليد، ويمكن أن نقول يرتدي حلة السرقة ظنّا منه بأن الحياة الثقافية لم تكشف هذا الصنيع، أو أنه

[1]- مصطفى صادق الرافعي: " تحت راية القرآن "، دار الكتاب للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط7، 1394-1974، ص 297.

يضحي العلمية في سبيل إرضاء أساتذته من بعض المستشرقين الذي وصفهم الرافعي بأنهم " لا يوثق برأيهم ولا يفهمهم في الآداب العربية أو كل هذه الاحتمالات تصب في تيار مضاد لما كان يتوهمه " طه حسين "، ولكنه أغرى الكثيرين من الباحثين بارتياد هذه الطرق الشائكة التي تجدف ضد التيار.. حتى لو كان هذا التجديد ضد الثوابت وضد القيم. [1]

والمستشرقون الذين ردّد أقوالهم د. "طه حسين " ... لم يبتكروا الجديد، وإنما بالغوا، في تضخيم ظاهرة الانتحال التي آثارها ابن سلام في كتابه " طبقات فصول الشعراء " ووردت هذه القضية على لسان الرواة في تقويمهم لبعض الروايات، ولبعض الروايات، ولبعض من رواد الشعر العربي، وهذا دليل جودة وتمحيص، وتدقيق ورغبة في الوصول إلى النص الأصلي الصحيح... حيث كانت الرواية منهجاً دقيقاً من مناهج العرب والمسلمين.

فالمفضل الصبي ينقد حماد الراوية المتوفى سنة 198ه، والأصمعي ينقد خلف الأحمر ويتهمه بالانتحال وقد توفي سنة 216ه، وابن هشام في سيرته ينقد ابن إسحاق المتوفى سنة 218ه، وان سلام يقوم روايات ابن إسحاق وحماد الراوية.

وابن إسحاق يقرّر بعدم علمه بالشعر... وهذا الإقرار عده رواة الشعر فضيحة وقد روى إشعاراً عن عاد وشهود.

وأبو الفرج الأصفهاني رفض روايات ابن الكلي عن دريد بن الصمة.

إن هذه الظواهر التي تؤكد حرص رواة الشعر على صحّة ما ينسبونه للشعراء لم تؤدهم إلى العقول بانتحال معظم الشعر الجاهلي، ولا بالقول إلى أسبقية القرآن، وأن الشعر العربي أتى بعده، لأنه تقليد له في الألفاظ والأساليب، ولا إلى القول بأن الشعر تطور للقرآن كما يزعم المستشرقون. [2]

[1]- المرجع نفسه

[2]- مرجع سابق، ص 297.

هذه الظواهر القديمة في قضية الانتحال دفعت بعض المستشرقين إلى الطعن في صحة الشعر الجاهلي وإلى الطعن في كثير من حقائق القرآن، وحتى نثبت صحة ما ذهب إليه الرافعي تسوق هذه الحقائق التي تكشف عن دور المستشرقين في تضخيم هذه القضية وتكشف كيف خدع د. طه حسين بهم ! أو كيف اتخذ من نفسه بوقالهم عن طوعية، رغبة الظهور- وصدمة الواقع الأدبي، والفكري.

وأول من تناول موضوع الانتحال شيخ المستشرقين الألماني تيودور نولدكه سنة 1861 أي قبل طه حسين ب 65 خمسة وستين عاماً.

وقد استعان بنتائج البحث في اللغات السامية، وما كشفت عنه النقوش الحميرية والسبئية وفي اليمن الجنوبية عموماً، وبالمقارنة بما حدث في الآداب الأخرى الأدب اليوناني وخاصة " هوميروس "، وفي الأدب الألماني ليسوق الأسباب الدقيقة التي تؤيد، وتوسع من نطاق النتائج التي وصل إليها ابن سلام الجمحي بنظرة تاقية ولكنها غير مؤيدة بالأسانيد التاريخية.

وبعد ثماني سنوات جاء " ألفرت فلهلم " ليشير الشكوك سنة 1872 في مقدمة ديوان " الشعراء الستة الجاهلين ".

وفي عام 1905 أصدر " مرجليوث " كتابه عن " محمد وظهور الإسلام، ثم كتب مقالته عن محمد " في دائرة معارف " الدين والأخلاق ". [1]

وتوالت الجهود التي تدرس التشابه بين لغة القرآن ولغة الشعر الجاهلي وكتب " مرجليوث " مقالا عن أصول الشعر العربي عام 1911 كتب بحثا في الموضوع نفسه سنة 1925.

ومن القضايا المغرضة التي آثارها " مرجليوث " هي أن الشعر تطور للقرآن، أي أتى بعده وهذا أخطر ما في القضية التي قلد كل تكويناتها د. طه حسين.

[1]- مصطفى صادق الرافعي: " تحت راية القرآن "-دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، طبعة 7-1394-1974 ص 298.

العلم والدين وشبهات المستشرقين:

ومما يتصل بتقليد " طه حسين " للزنادقة وبعض المستشرقين الذين لا يوثق برأيهم ولا بفهمهم في الآداب العربية قضية " الصلة بين العلم والدين ".. حيث يرى أن الدين من نتاج الجماعات البشرية تقليداً لرأي " دوركايم " الذي يقول: " إن الجماعة تعيد نفسها " أو بعبارة أدق أنها تؤله نفسها ويقول د. طه حسين وهو يتبنى الفكر " العلماني ".

إن العالم ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة، وكما ينظر إلى الفقه، وكما ينظر إلى اللباس، من حيث أن هذه الأشياء كلها ظواهر إجتماعية يحدثها وجود الجماعة وتقع الجماعة في تطورها، وإذن فالدين في نظر " العلم الحديث " ظاهرة كغيره من الظواهر الاجتماعية، لم يترل من السماء، ولم يهبط به الوحي، وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها.

ثم يرى د. طه حسين في محاولة للتوفيق الملفق بين العلم والدين " أن من الممكن أن يكون الإنسان ذا دين يؤمن بما لم يثبته العلم، ويكون عالماً لا يقر ما لم يثبته العلم.

فكل إمرئ هنا يستطيع إذا فكر قليلا أن يجد في نفسه شخصيتين ممتازتين: إحداهما عاقلة تبحث وتنتقد وتحلل، وتغير اليوم ما ذهبت إليه أمس، والأخرى شاعرة تلد وتألم وتفرح وتحزن وترضى وتغضب في غير نقد ولا بحث ولا تحليل وكلنا الشخصيتين متصلة بمزاجه وتكوينه لا نستطيع أن نخلص من إحداهما ". [1]

ثم يتصور " طه حسين " الحل التلفيقي للتلاقي بين العلم والدين وهما في رأيه لا يلتقيان، يقول: وما الذي يمنع أن تكون الشخصية الأولى عالمة باحثة ناقدة ؟ وأن تكون الشخصية الثانية مؤمنة ديانة مطمئنة طامحة إلى المثل الأعلى ؟ "

ثم يقول: " وأنا أؤكد أن هذا اللون من الحياة النفسية وحده هو الذي يكفل السلم بين العلم والدين " وهذا التقسيم قائم على افتراض مخطئ وهو التصادم بين العلم والدين، والمنهج الإسلامي

[1]- مصطفى صادق الرافعي: " تحت راية القرآن "، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان طبعة 7، 1394-1974، ص 301.

لا يقول بهذا التصادم... لأن العلم يكتشف أسرار الله في الكون وفق تفكير منظم وآليات وتقنيات تتجدد وتنطق حسب تطور الأزمنة... والبيئات ونظريات العلم ووسائله، والحركة العلمية في ظل الإسلام تؤكد ذلك نظريا وعمليا.

وعلم النفس في أحدث ما انتهى إليه ينقض كلام د. طه حسين في مسألة الذات العاقلة والذات الشاعرة.

وهل التدين بعيد عن " العقل " ؟ وهل مجرد خواطر وسوائح وتخيلات ؟

وأمام هذا التصور الغريب، والموقف المتناقض من " الدين " يقول الرافعي مستظلا " براية القرآن " ومتحصنا بأسلحة اليقين ويرد على طه حسين مفنداً رؤيته المتناقضة " يخلط طه في معنى العلم ومعنى الدين، فيذكر أنهما لا يلتقيان إلا نزل أحدهما عن شخصيته، ويزعم أن العلم لا يرى الدين إلاّ قد خرج من الأرض كما تخرج الجماعة فمتى قطع العلم على أن الجماعة الإنسانية خرجت من الأرض، وقد أخذ مذهب دارون يتصدع ويتخرب على زلازل القلم وانحيازنا موسى النشوء عن هذه الجهة الحيوانية ومتى كان العلم يبحث في الأديان على أنه علم ؟ وكيف له أن يبحث فيها وهو مقصور بطبيعته وتحديد هذه الطبيعة على ما يدخل في باب الأدلة الحسية، ولا وسائل له إلا وسائل الحس المعروفة من البحث والاستقراء والمقابلة والاستنباط، دون أن يتصل بالمعاني العقلية المحضة مما هو نظري فلسفي كالمعاني التي يرجع إليها الدين، إنه ليس بعلم ما يجاوز تلك الحدود المسورة بأسوار البحث والامتحان بحيث لا تخرج منه النتيجة الصريحة التي برهانها الحس واليقين دون الظن والجدل ".

ثم يقول الرافعي ملخص الرد على طه حسين ومنكراً عليه رأيه:

" فنقول مثلا إن قصة بناء الكعبة الخرافة، وإن إبراهيم وإسماعيل شخصان وهيان لا يعدان علما، بل حمق محض، فإذا اعتذر منه بالعلم أضاف إلى حمقه جهلا، فإذا أصر على قوله واعتذاره زاد على الجهل الحمق والغفلة ". [1]

وفكر د. طه حسين الدائر في فلك " العلمانية، والذي أدى به إلى التقليد واتباع آراء بعض المستشرقين... جعله يتعصب لآراء اقتناعا منه بهذا المنهج.

وقد اتهمه الرافعي، وحلل موقفه الفكري، ومنهجه العلمي القائم على الشرك.

يقول: رأينا عصية " طه " على الإسلام تلبس ثلاثة وجوه:

أولها: عقيدته في القرآن وأنه من وضع الذي جاء به لا من وحي ولا تنزيل ولا معجزة.

وثانيها: رأيه في النبي صلى الله عليه وسلم وأنه رجل سياسي فلا نبوة ولا رسالة.

وثالثها: عمله في توهين أمر الأئمة من الصحابة من بعدهم وقياسهم في الإنسانية وأهوائها وشهواتها على قياس من نفسه وطباعه.

وهذه أنهم تحتاج إلى مراجعة ومناقشة وتحليل ولكنها تتوافق مع المنهج الذي تابع فيه د. طه حسين آراء المستشرقين ومناهجهم المادية. [2]

والدكتور " طه حسين " لم يتابع الردود على ناقديه... ولكنه كتب إلى مدير الجامعة المصرية موضحا موقفه العام من " الدين " وهو موقف نابع من رؤيته لتكوين الشخصية تكوينا إزدواجياً أو تناقضياً كما اتضح من أقواله.

يقول: كثر اللفظ حول الكتاب الذي أدرته منذ حين باسم " في الشعر الجاهلي " وقيل إني تعمدت فيه إهانة الدين والخروج عليه، وإني أعلم الإلحاد في الجامعة، وأنا أؤكد لعزتكم أني لم أرد

[1]- مصطفى صادق الرافعي: " تحت راية القرآن "، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، طبعة 7، 1394، ص 304.
[2]- المرجع نفسه.

إهانة الدين ولم أخرج عليه وما كان لي أن أفعل ذلك وأنا مسلم أؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ولكن الرافعي يفند هذا الكلام في فصول متعددة من كتابه " تحت راية القرآن " وهي: عصية " طه حسين " على الإسلام.

قد تبين الرشد من الغي.

و " مسلم لفظاً لا معنى " وهو من أشد المباحث ضراوة.

ولكنا الرافعي في المقدمة يقول هو يرجوا أن يتراجع د. " طه حسين " عن آرائه التي قلد فيها الزنادقة وبعض المستشرقين فيقول " وما نزيد طه ما قلنا مما سنقرؤه في هذا الكتاب، ولكنا نرجوا أن يهديه الله فيكون من أمته ويعود إليها، فإنه إلا يكن بها لا يكن بغيرها، وإنها إلا تكن به تكن بغيره ".

وأرى أن الخلاف بين الرافعي وطه حسين يرجع إلى طبيعة منهج كل منهما، وطريقته في التفكير فالرافعي ينطلق ثوابت الفكر الإسلامي، ومن الإحساس بقيمة التراث العربي، وعلومه ومناهجه.

و د. طه حسين متأثر بمناهج التفكير الغربية وينطلق من قاعدة منهجية وهي التصادم بين التفكير العلمي، والتفكير الديني مع محاولة التوفيق بينهما في صورة تلفيقية أو خداعية من باب " التقية ".

والجزء الأول من كتاب " تحت راية القرآن " يجسد هذا التصور الذي يؤطر حقيقة الخلاف بين الرجلين فهو خلاف جذري، ومنهجي، وشخصي، وقد تضمن الكتاب ست مقالات

في قسمه الأول... وهي تفصيل لمنهج " الرافعي " ولموقفه من الثقافة الغربية ودعاوى التجديد والمقالات هي: [1]

1- المذهبان: القديم والجديد.

2- الجملة القرآنية.

3- ما وراء الأكمة.

4-الرأي العام في العربية والفصحى.

5-تنصير اللغة.

6-جله هرة.

وكل هذه المباحث تناقش ماهية القديم ... وماهية الجديد وماذا نقبل منهما وماذا نفرض في ظل ثوابت الحضارة العربية والثقافة الإسلامية، مع رفض كل ما يتعارض من مكونات الفكر "الأجنبي" وقبول الرؤى والأفكار والمناهج التي لا تتصادم مع مناهجنا وعقيدتنا.

جذور المعركة وبواعثها:

وحيث نتأمل ونبحث عن جذور الخلاف بين الرافعي "وطه حسين" نجد أنّ "طه حسين" هو الذي بدأ بالهجوم على الرافعي متهمًا إياه بالجمود الفكري، وهو إتهام ينطلق من الخلاف المنهجي كما وضحت سابق.

فالرافعي أسبق في الحياة الأدبية من طه حسين والعقاد.

وبه الرافعي بالنقد الأدبي مبكرًا وسنّه خمس وعشرون سنة، وكتب في المقتطف مقالا عن الشاعر محمود سامي أب رودي سنة1905، قال فيه "شاعر فعل هجود، ضيق الفكر، ضعيف الحبك" في إبراز المعاني وإختراعها.

[1]- مصطفى صادق الرافعي: " تحت راية القرآن "، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، طبعة 7 1394-1974 ص 306.

ولكن "طه حسين" يبدأ بالهجوم على الرافعي... ويسخر في كتاب "تاريخ آداب العرب" فيقول في صحيفة "الجريدة" سنة 1912 إنه لم يفهم من هذا الكتاب حرفً واحدًا"

وحيث ألف الرافعي كتاب "حديث القمر" قرطه الأديب العالم "حنفي ناصف" ولكن "د.طه حسين" نقد هذا الكتاب نقدا الأنا... وقال في تهكم: إنّ هذا التقريظ ليس من عمل حنفي ناصف، بل من عمل الرافعي نفسه.

وحين ألف الرافعي "رسائل الأخرى" التي كتبها إثر موقف "هي زيادة" المضاد منه بعد أن توهم أنها تبادله مشاعر المودّة والمحبّة... وبعد أن سعى العقاد للوقيعة بينهما.

تناول "طه حسين" والعقاد هذه الرسائل بالنقد العنيف، وممّا زاد من ألم الرافعي في محنته مع "هي" أنها وقفت "حسنين حسن مخلوق"، مع د.طه حسين في بعض ما أخذه على الرافعي ونشرته في مجلة المقتطف.

ويقول د.طه حسين في نقده الرافعي ونقد "رسائل الأحزان"، نظّم الرافعي إذا قلنا إنه يشق على نفسه في الكتابة والتأليف بل أنت تنصفه إذا قلت "إنه ينحت من صخر إنّ كل جملة من هذا الكتاب تبعث في نفسي شعورًا قويا مؤلما بأن الكاتب يلدها ولادة، وهو يقاس من هذه الولادة ما تقاس الأم من آلام الوضع.[1]

ويقوم الرافعي من هذه المقدمة الحادة الساخرة إلى التصريح بالهجوم على كتابات د.طه حسين في تاريخ الأدب قائلا "أفلا تسأل نفسك" لم لم تعجبني كل الفصول التي كتبها في الأدب وتاريخه وأنت تتحبط منذ سنين، وتكتب كل أسبوع مرة فإن سألتها فهل تستخرج من ذلك إلا هذه الفصول هي في رأيي خلط مخلوط، تركب فيها الشطط، ثم تعتسف الطريق، ثم تضع التاريخ كما تخلقه أنت لا كما خلقه الله، وتصول على الأموات الذين لا يملكون دفعًا ولا ردّا ولا حوارًا

[1]-مصطفى صادق الرافعي "تحت آية القرآن"، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان طبعة 1394- 1974 ص 307-308.

ولا جوابً" ونحن راية القرآن يظّل الرافعي مقاتلا ومدافعا عن قيم الإسلام وثوابته ومعالمه لا يخشى في الله لومة لائم.

وهذه المعركة ما زالت مستمرة... وما زال الفريقان يصولان ويجولان... وكل يرفع رأيته، ويشهر أسلحته ويعلن حجته- ولكن تبقى كلمة الله هي العليا.

وكما قال تعالى: (بل نقذف بالحق على الباطل فيدعمه فإذا هو زاهق ولكم الويل ممّا تصفون).[1]

-وما أروع هذه الكلمات التي وصف بها الرافعي "القرآن الكريم" الذي عاش يَسْتروح نسائمه، ويستظل برأيه، ويدافع عن حقائقه، ويحتمي بآياته البيّنات.

[1]-مرجع سابق ص309.

خاتمة

خاتمة

خاتمة:

يمكن القول من خلال هذا البحث وما تمّ عرضه: أنّ الإستشراق يشكل الجذور الحقيقية التي كانت ولا تزال تقدّم المدر للتنصير والاستعمار، وتغذّي عملية الصراع الفكري في البلاد المستعمرة أنّ الاستشراق تيار فكري، يتجب صوب الشرق، لدراسة حضارته وأديانه وثقافته ولغته وآدابه، من خلال أفكار إتسم معظمها بالقصب والرغبة في خدمة الاستعمار، وتنصير المسلمين، وجعلهم مسخًا مشوّهًا للثقافة الغربية، وذلك ببث الدونية فيهم، وبيان أنّ دينهم مزيج من اليهودية والنصرانية، وشريعتهم هي القوانين الرومانية المكتوبة بأحرف عربية، والنيل من لغتهم، وتشويه عقيدتهم وقيمتهم، ولكن بعضهم رأى نور الحقيقة فأسلم وخدم العقيدة الإسلامية، وأثر في محدثيهم، فبدأت كتاباتهم تنجح نحو العملة، وتنحو تحول إستقطاب القوى الإسلامية، وتوظيفها لخدمة أهدافهم الإستشراقية وهذا يقتضي الحذر عن التعامل مع الفكر الإستشراقي الذي يندثر الآن بدثار الموضوعية.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

- مصطفى صادق الرافعي: " تحت راية القرآن "، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ط7، 1394-1974.
- نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، جزء 3، ص 352-353.
- محمود مقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا كتاب عالم المعرفة، العدد 167، الكويت 1992م.
- نايف بحث محمد آل مسعود، المستشرقون وتوجيه السياسة التعليمية في العالم العربي، دار النشر والتوزيع، الرياض ط1، 1993م ص 49-40.
- نجيب الحقيقي، المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، الجزء "3"
- Dialogue Mediterranéen, Algerie 1.11.12. Mars 2016
- إبراهيم الحيدري، صوت الشرق في عيون الغرب-مرجع سابق- دار الساقي، لندن ط1 1996 ص34.
- إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة- الإنشاء، نقله إلى العربية كمال أبو ديب الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية 1981، ص: 368.
- الإستشراق بحث، د. مازن مطبقاني، منشور في موقع مركز المدينة للاستشراق.
- إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون، وتاريخ صلتهم بالعربية، بحث في الجذور التاريخية، عمان، دار حنين 1992.
- إسماعيل محمد، الإستشراق بين الحقيقة والتضليل، مدخل علمي لدراسة الإستشراق، الطبعة الثانية، القاهرة، دار الكلمة للنشر، 2000.
- أضواء على الاستشراق، د.محمد عبد الفتاح عليان، ط1، دار البحوث العلمية، الكويت، 1980م.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية "مصطفى صادق الرافعي" دار الكتاب العربي بيروت لبنان ط9- 1393- 1973م
- -الإستشراق في الأدبيات العربية، د.علي النملة، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، 1414هـــــ

- -الإستشراق والمستشرقون، د.مصطفى السباعي، بيروت، 1978م.
- -الإستشراق، إدوارد. سعيد، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1981م.
- بن تيبان بد سعد، المستشرقون وتوجيه السياسة التعليمية في العالم العربي، دار أمية للنشر والتوزيع، ط1 1414ه- ص132-133.
- جيل جديد أثر المرأة في إبداع الرافعي نسخة محفوظة 24 أكتوبر 2018 على موقع واي باك متشين.
- حياة الرافعي ص 341، محمد سعيد العريان.
- راجي سلطاني- مجلة بصائر الفكر، 8 نوفمبر 2018.
- طبع بمطابع شركة تيب-لم يذكر الإصدار والكتاب يحتوي على مراسلات وزيارات ومعلومات عن عمان وزيارات القطع البحرية الفرنسية وكذلك الأوضاع في عمان وشرق إفريقيا التي كانت لبعضها تحت السيادة العمانية ذلك الوقت مثل أوغندا وكينيا.
- عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين-بيروت ط1، 1984..
- عبد العال محمد الجيري، الإستشراق وجه الاستعمار الفكري-مكتبة وهبة- القاهرة ط1-1995
- قصة الإسلام، تحت راية القرآن نسخة محفوظة 17 أبريل 2015 على موقع واي باك مشين.
- كتاب "وفي القلم" مصطفى صادق الرافعي"
- مجلة جامعة الأبحاث المجلد " 15" 2001.
- المستشرقون والإسلام، محاضرة للأستاذ محمد قطب.
- مسرحي مجهول لمصطفى صادق الرافعي، مصطفى يعقوب عبد النبي نسخة محفوظة 25 أكتوبر 2014 على موقع " واي باك مشين ".
- مصطفى صادق الرافعي "تحت آية القرآن"، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان طبعة 1394-1974.
- مصطفى صادق الرافعي، سيرته وحياته، د. مصطفى نعمان السامرائي، دار المعرفة، بغداد، 1977 .

- المكتبة الشاملة بنسخة محفوظة 25 سبتمبر 2017 على موقع واي باك مشين.
- -نجيب العفيفي، المستشرقون..[1]
- النشيد الوطني التونسي نسخة محفوظة 10 يناير 2017 على موقع " واي باك مشين ".
- صلاح الدين عثمان هاشم": المستشرقون والجغرافيا، مناهج المستشرفين في الدراسات العربية الإسلامية، تونس المنظمة العربية للتربية والعلوم الرياض 1985 ج1- .
- البدراوي زهران، الإستشراق، مجلة المهل، العدد (534) 28 يوليو 1996م، جدة المملكة العربية السعودية.
- صلاح الدين عثمان هاشم المستشرقون والجغرافيا، مناهج المستشرقين الدراسات العربية الإسلامية، تونس، المنظمة العربية المترجمة والعلوم الرياض 1985،..
- "العالم الجديد" لفظة أطلقت على أمريكا الشمالية لدى اكتشافها أواخر القرن الخامس عشر على يد كريستوف كولومبوس سنة 1492م.
- "الف عام من الصدام والتفاعل بين العرب وأوروبا" سامي ذبيان. مجلة ألف العدد الأول سنة 2003.
- "فلسفة الاستشراق" .أحمد يمايلوفيتش. و "الظاهرة الاستشراقية" ساسي سالم الحاج" "وتاريخ حركة الاستشراق "ليوهان فوك
- الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، الطيب بن ابراهيم، دار المنابع، دط. 2004م.
- الاستشراق.إدوارد سعيد ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية. الطبعة العربية السادسة.ص189.
- الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، ادوارد سعيد، ترجمة كمال أبوديب، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة العربية السادسة ،2003م.
- الاعتبار" لأسامة بن منقذ. تحقيق فيليب حتى ص25.نقلا عن "الاستشراق الفرنسي والأدب العربي د.أحمد درويش. دار غريب.القاهرة دط.سنة 2004.
- تاريخ الأدب العربي. أحمد حسن الزيات دار المعرفة.ط.4 1418هـ/1997م
- الحضارة الانسانية بين الشرق والغرب.سامي اليافي، مطبعة العالم العربي.ط.1.دت.

- القاموس المحيط، مجد الدين الفيروزآبادي، دارا حياء التراث العربي/مؤسسة التاريخ العربي،بيروت.
- لسان العرب.ابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر. بيروت. المجلد العاشر. ط1. 1410هـ/1990م باب حرف القاف
- المستشرقون، نجيب العقيقي. دار المعارف.ط1980.4.ج104/1.
- المنهل:قاموس فرنسي-عربي، د.سهيل إدريس. دار الكتاب.دط.2004م.
- نقد الخطاب الاستشراقي"،ساسي سالم الحاج، دار المدار الإسلامي،ط1. يناير 2002. ج1 /07.
- نقد الخطاب الاستشراقي. ساسي سالم الحاج دار المدار الاسلامي. يناير 2002. ط1. ج17/1
- ينظر "دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في القرون الوسطى". جوزيف نسيم يوسف. مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع. دط.1988م.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

شكر وتقدير

إهداء

مقدمة .....أ

الفصل الأول
مفهوم الاستشراق

المبحث الأول: لمحة عن الاستشراق 2

أ- لـــغـــة 2

ب-اصطلاحا 4

المبحث الثاني: دوافع الاستشراق 9

الدوافع الدينية 9

الدوافع العلمية 10

الدوافع الاستعمارية.....11

الدوافع النفسية 12

المبحث الثالث: مراحل الإستشراق 17

أ- الطور الأول 17

ب-الطور الثاني 20

ج- الطور الثالث 23

الفصل الثاني
موقف الرافعي من الاستشراق.

المبحث الأول: التعريف بشخصية مصطفى صادق الرافعي 27

وفاته: 29

- آراء حول مصطفى صادق الرافعي:.....29

مؤلفاته: 30

3- كتاب أوراق الورد: 33

المبحث الثاني: البحث عن أهم كتبه حول الإستشراق.....34

تاريخ آداب العرب: 34
3-كتاب "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية": 35
4-كتاب "وفي القلم": 36
المبحث الثالث: موقف الرافعي من الإستشراق: 38
العلم والدين وشبهات المستشرقين: 48
جذور المعركة وبواعثها: 52
خاتمة 56
قائمة المصادر والمراجع 58